كافكا في طنجة



٦ عمارات العبور صلاح سالم مدينة نصر القاهرة
011 219 023 69 - 01007224444
Tabark.ma62@Gmail.Com
tabarakpublishing.com

كافكا في طنجة

رواية - محمد سعيد احجيوج
الطبعة الأولى، ديسمبر ٢٠١٩

الترقيم الدولي: ٩٧٨ - ٩٧٧ - ٦٧٢٥ - ٢٢ - ٠٩
إيداع / مصر: ٢٣٦٦١ / ٢٠١٩

الغلاف: إسلام أحمد - الإخراج الداخلي: يوسف القرماوي

محمد سعيد أحجيوج

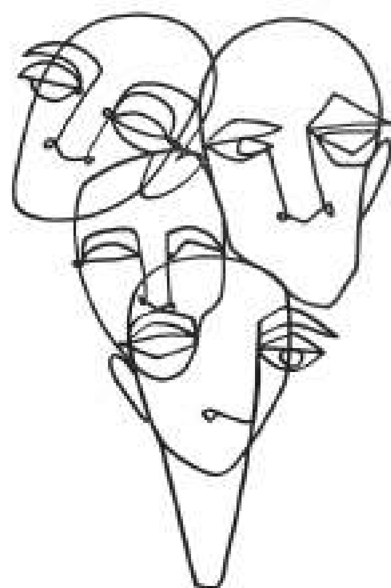
كافكا في طنجة



تبارك

”وداعًا أيها الغريب. كانت إقامتك قصيرة، لكنها كانت رائعة. عسى أن تجد جَنتك التي فَتّشت عنها كَثيرًا. وداعًا أيها الغريب. كانت زيارتك رقصة من رقصات الظّل، قَطرة من قطرات النّدى قبل شروق الشّمس، لَحنًا سمعناه لثوانٍ من الدغل، ثُم هززنا رؤوسنا وقلنا إننا توهمناه. وداعًا أيها الغريب. لكن كل شيء ينتهي.“

أحمد خالد توفيق



[1. البطـل ذو الألف وجه]

قبـل أن ينـام قـرأ قصـة «التحـول» الشـهيرة لفرانـز كافـكا، وحـين اسـتيقظ في الصبـاح التـالي وجـد نفسـه انمسـخ. لا، لم يتحـول إلى حـشرة ضخمـة مثـل جريجـور سامسـا، بـل أصبـح نسـخة مشـوهة نتنـة مـن نفسـه. لكنـه أدرك، بشـكل مـا، أن نهايتـه لـن تختلـف عـن نهايـة الشـاب سامسـا، وأدرك أنـه سـيموت بعـد ثلاثـة أشـهر بالتـمام والكـمال، قبـل يـوم مولـده السـابع والعشريـن.

الآن وقـد اسـتوليت عـلى انتباهكـم، لنعـد للبدايـة قليـلا ونبـدأ خطـوة بخطـوة.

تسـألون مـن أنـا؟ يـا لفضـول عقلكـم البـشري المحـدود الـذي لـن يسـتطيع اسـتيعاب كينونتـي الشاسـعة. يكفـي أن تعلمـوا بـأني حملـت أسـماء كثـيرة عـلى امتـداد

تاريخكم الإنساني. منها الشاعر الضرير، شكسبير، الحكواتي... وربما أشهرها لديكم هو شهرزاد. وتسألون الآن أين تدور هذه الأحداث. يا لفضولكم اللامحدود. هل هذا مهم حقا؟ فليكن المكان هو مدينة طنجة. لكن بالتأكيد ليست مدينة طنجة التي تعرفون. هذه طنجة أخرى تشبهها. طنجة موازية لما تعدونه العالم الواقعي. إلا إن هذا التوازي لا يعني أنها خيالية. لنتفق من البداية على أن ثنائية الواقع والخيال نسبية تماما.

هل يمكنني الآن العودة للحكاية؟ جيد.

البداية كانت في مجاري الصرف الصحي. كان يجري وهو يتلفت إلى الوراء بين خطوة وأخرى هاربا من حشرة ضخمة بدت له تحت الأضواء الخافتة كأنها صرصار بحجم ديناصور. طبعا هو يحلم. أعرف أنكم نبهاء بما يكفي لتدركوا ذلك ولتعرفوا أيضا بأن هذا الحلم نتيجة طبيعية للقصة، أو الرواية، التي قرأها

قبل نومه.

قبل أن يعود إلى بيته ذلك اليوم الذي سبق تحوله، وقد كان يوم أحد، كان قد ترك قدميه تقودانه عصرا نحو شاطئ مالاباطا حيث لم يذهب منذ خمس سنوات. أعجبه الكورنيش الجديد والساحة الشاسعة التي أرادت البلدية أن تقلد بها ساحة مسجد حسان في الرباط، لكنه على بعد خطوات إلى الأمام وجد نفسه أمام مجرى مفتوح لتصريف فضلات سكان المدينة مباشرة إلى الشاطئ. على يساره رأى أطفالا يسبحون مستمتعين وسط مياه الفضلات الممتزجة بمياه البحر، وعلى يمينه رأى القنطرة التي تغطي جزءا من وادي الصرف الصحي حيث تمر عليها السيارات بسرعات لا تسمح للمشاة بالعبور. أطل على المجرى وحدق بعض الوقت في المياه المتهادية بثقل الفضلات البشرية. رفع بصره ورأى على الجانب الآخر من القنطرة رجلا يتفحصه بإمعان. رجلا غريبا يغطي السواد كامل

جسـده. حـذاء أسـود لامـع وبذلـة فاخـرة مـن السـواد المتمـوج. شـعر قصـير أشـعث، عينـان جاحظتـان وأذنـان كبيرتـان مشرعتـان لاسـتقبال أسرار العـالم الدفينـة. كل مـا فيـه أسـود إلا بشرتـه الشـاحبة البيضـاء ومفكـرة صغـيرة حمـراء في يـده اليـسرى. العينـان حادتـان لا تخفيـان شـيئا مـن ذكاء صاحبهـما المتقـد، لكنهـما أيضـا تكشـفان حزنـا دفينـا فـرض نفسـه عـلى كامـل الوجـه. بـدا لـه الوجـه مألوفـا. مألوفـا جـدا. لعلـه شـخص شـهير. واثـق هـو أنـه شـاهد صـورة لهـذا الوجـه منـذ وقـت قريـب.

أبعـد بـصره عـن الرجـل وأخـرج مـن جيبـه مغلفـا مرسـوما عـلى ركنـه أيقونـة خـضراء لأفعـى تلتهـم ذيلهـا ومكتوبـا عليـه «مختـبر التحليـلات الطبيـة والانجـاب البيولوجـي». تأمـل فيـه طويـلا حتـى دمعـت عينـاه. زم شـفتيه. قطـب جبهتـه. ثـم أرخـى قسـمات وجهـه. تنهـد، وتـرك الحـسرة تطبـع نفسـها عـلى بيـاض لوحـة الوجـه. انزلـق المغلـف وانفلـت مـن يـده ورأى الريـاح الخفيفـة

تلاعبه قليلا، كأنها تهدهد ريشة لتنام، قبل أن تودعه سطح الماء. رآه يطفو قليلا ويسري مع التيار، إلى أن تشبع بمياه الصرف الصحي وأنزله ثقل الفضلات إلى الأعماق.

تلك القنطرة وأعمدتها الخرسانية التي ترتكز على المجرى هي المكان الذي يدور فيه هذا الحلم. بالضبط الجزء السفلي من القنطرة.

كلما أوغل في المجاري خفتت الإضاءة وتضاعفت كمية الروائح النتنة التي يبتلعها بملء فمه اللاهث لإمداد رئته بالهواء.

تعثر وسقط فوجد نفسه تحت المياه الكثيفة واللزجة. نهض بسرعة وبصق ما تسرب إلى فمه ومسح عن وجهه ما التصق به من طين سكان المدينة. عاد يواصل الجري بسرعة غيرِ معتادة في عالم الكوابيس. لكنه، كمن حسد نفسه وأصابها بسحر عينيه، أحس بوخزة رهيبة من الألم على كفله الأيمن وسقط مجددا،

وفوقـه حطـت الحـشرة، الأشـبه بالديناصـور اللاحـم الفتـاك الشـهير باسـم تي-ريكـس، وبـدأت تقـترب بفكهـا إلى عنقـه.

تسـارعت دقـات قلبـه وتـردد صداهـا كطبـول الحـرب تحـت أقـواس القنطـرة. انتبـه الآن إلى أن الصمـت كان مطبقـا، ولم يكـن يسـمع حتـى صـوت المـاء المنـزاح، والمتناثـر، مـن تحـت ثقـل خطواتـه. لكنـه الآن يسـمع صـوت دقـات قلبـه كأنهـا طبـول إعـلان حـرب بـين قبيلتين في مجاهـل افريقيـا. أراد أن يرفـع يديـه مـن تحـت الميـاه ليدفـع عنـه الحـشرة، التـي بـدت لـه الآن كلبـا أسـود ضخـما يشـبه، لا بـل هـو ذاتـه، كلـب آل باسـكرفيل، لكنها لم تسـتجب للإشـارات العصبيـة القادمـة مـن دماغـه. أراد أن يـصرخ، كفعـل يائـس لا بديـل لـه عنـه، غـير أن لسـانه التصـق بسـقف حلقـه وبـدأ يشـعر بالاختنـاق. سـارت الرعشـة في جسـده وانتفـض، وشـعر بسـائل دافـئ يسـيل بـين فخذيـه، ثـم فتـح عينيـه.

أول ما أحس به بعد الاستيقاظ هو أن الرائحة العفنة بقيت عالقة في أنفه، وانتقلت من الحلم إلى الواقع. سيعرف بعد قليل أن العكس هو الصحيح. رائحته التي صارت نتنة انتقلت إلى حلمه، بل هي التي شكلت الحلم كله قبيل لحظات من استكمال الدماغ خطوات الإيقاظ.

ثاني ما أحس به هو الخدر المنتشر على كامل نصفه الأيمن. خدر مسكون بالوخزات. كان شعورا قريبا من التنميل. بل هو التنميل ذاته لكن بدرجة مضاعفة عشرات المرات. الغريب أنه كان نائما على جانبه الأيسر. فكر. يفترض أن يكون التنميل على الجانب الذي نام عليه وليس الجانب المتحرر من الضغط.

ثالث ما أحس به هو البلل الدافئ بين فخذيه نزولا إلى ساقيه. نعم تعرفون بالتأكيد ماذا يعني ذلك.

لم يصدق نفسه. ظنَّ أنه ما زال يحلم. رمش بعينيه عدة مرات لكن لا شيء تغير. الرائحة النتنة نفسها، التنميل عينه على كامل نصفه الأيمن، والبلل ذاته تحته. لم يكن حلما إذن. تجول ببصره في أرجاء الغرفة. إنها غرفته بالتأكيد. زوجته نائمة على الطرف الآخر من السرير. على مقربة منها مهد طفلتها. ساعة الحائط العتيقة، التي اشترتها أمه ضمن تجهيزات عرسها، تشير إلى السادسة صباحا. على الحائط أمامه ثلاث من لوحات الخط العربي التي كان يهوى رسمها قبل أن تقبض عليه الحياة بفكها وتقصم ظهره. إنها غرفته بالتأكيد. ليس حلما ما يعيشه الآن.

الآن، بعد أن أراد أن ينقلب على ظهره، جاءت لحظة الحقيقة. الحقيقة التي سترتج لصرخته منها جدران كامل العمارة، ذات التصميم الكولونيالي، وسيبقى صداها طويلا في الشقة الشاسعة ينتقل من غرفة إلى غرفة، يطرق الأبواب كلها بابا بابا، والآذان

كلها أذنا أذنا، مارا تحت الكراسي قافزا فوق الأرائك، مرتدا على الجدران والأرضية والسقف، وسيحتاج الأثاث إلى وقت طويل قبل أن يمتص كامل مشاعر اليأس والغضب والحزن والألم المنصهرة في الصرخة.

[2. يوتوبيا]

لا مفر من الاعتراف بأن هذه الخرافة التي أحكيها لكم الآن، أو الرواية كما تسمونها في هذا العصر، تشبه، بشكل أو بآخر، الحكاية التي أوحيت بها لفرانز كافكا منذ أزيد من مئة عام. لكنها بالتأكيد ليست نسخة مطابقة. على غرار تلك القصة سأتوقف الآن لأحكي قليلا عن خلفية بطلنا قبل العودة إلى صباح التحول وماذا حدث بعد ذلك، وربما كيف حدث ذلك.

كان جريجور سامسا مندوب مبيعات متجولا. كان شابا عازبا ضحى بنفسه وبطموحاته طيلة خمس سنوات، وكان قد قرر مواصلة التضحية لسنوات

أخـرى قادمـة، ليعيـل عائلتـه، المكونـة مـن أب وأم وأخـت صغـرى، بعـد أن خـسر الأب تجارتـه وغـرق في الديـون. اضطـر الشـاب للعمـل في وظيفـة لا تعجبـه لينقـذ عائلتـه مـن الفقـر. الغريـب أنـه كان لـدى العائلـة طباخـة وخادمـة رغـم أنهـا عائلـة فقـيرة، كـما يفـترض. هـذه الجزئيـة لم أسردهـا عـلى كافـكا، هـو أضافهـا مـن عنـده.

أمـا بطـل هـذه الحكايـة فقـد كان متزوجـا، وكان يشـتغل معلـما مـن الصبـاح إلى مـا بعـد الظهـر، وبائـع خـضروات وفواكـه في المسـاء، خـلال الأيـام التـي لا يعـود فيهـا منهـكا خائـر البـدن مـن المدرسـة.

كان طموحـه أن يتخـرج في كليـة الآداب ناقـدا أدبيـا يشـار إليـه بالبنـان، يجعـل العـالم يرمـي بالنظريـات الأدبيـة كلهـا إلى أقـصى أعـماق تاريـخ الأدب ويعتنقـون جميعهـم نظريتـه الفـذة التـي لم يضـع بعـد خطوطهـا العريضـة. لكنـه سـيتخلى عـن حلمـه، أو سـيؤجله، بعـد

عامين وسيقفز إلى معهد تكوين المعلمين ليتخرج بعد سنة واحدة معلما متجهم الملامح متهدل الكتفين.

كان عمره واحدا وعشرين عاما، وكان خلال سنة دراسته في المعهد يعمل في مهن وحرف صغيرة متعددة ليغطي مصاريفه. المنحة الدراسية المتواضعة التي يمنحها المعهد، بجانب مدخرات والدته، التي كانت تدبرها خفية عن والده، بالكاد كانت تكفي لسد رمق العائلة، بعد أن قرر الأب فجأة أن يتوقف عن العمل ويفترش سجادة الصلاة في البيت متعبدا مستغفرا ربه من ذنوبه طيلة سنوات اشتغاله ساقيا في حانة.

قبل أن أنسى: يوم الأحد، الذي سبق صباح الاثنين الذي اكتشف فيه بطلنا تشوهه والذي سيكون بداية اكتشافه للروابط العائلية الحقيقية، خرج يتمشى ولم يذهب إلى السوق حيث يفترض أن يحصل على دخل إضافي من عربة الخضروات. لم يكن تعِبا طامعا

في الاستجمام. لم يذهب أيضا يوم السبت ولا مساء الجمعة. السبب ببساطة أن عربته أخذت منه مساء يوم الخميس. سأعود طبعا لهذه التفصيلة لاحقا، أما الآن فلنتحدث قليلا عن الأب. عن رب الأسرة الذي اكتشف بغتة أنه ثمة ربا أعلى منه فتخلى عن ربوبيته تجاه أسرته وتفرغ لعبادة ربه الجديد.

لو أسندنا مهمة وصف الأب إلى الابن الغاضب لقال عن أبيه إنه نحيف كقلم رصاص، طويل كعمود إضاءة، عنيد كحمار، عنيف كجلمود صخر حطه السيل من عل. كما ترون، بقدر ما يوضح هذا الوصف طبيعة العلاقة بين الابن، الذي حمل على كتفيه الكرة الأرضية مرغما بثقل الواجب، والأب الذي تغير فجأة لسبب غير معلوم لعائلته وتخلى عن حمله دون أن يفكر مرتين. طبعا لم يكن بحاجة إلى التفكير مرتين، ألم يلد الابن ويسمنه حتى يكبر ليشتغل ويصرف عليه؟ ذاك هو الدور الوحيد للأبناء

أن يكبروا ليصرفوا على آبائهم ثم يتزوجوا وينتجوا أطفالا يعلفونهم، بشكل أو بآخر، حتى يكبروا ليعولوهم، ثم يلدوا بدورهم من يصرف عليهم ويعولهم لاحقا. المهم، قلت إن ذلك الوصف بقدر ما يوضح طبيعة العلاقة بين الابن والأب فهو يوضح أيضا، بتقليديته وتكراره الممل السخيف، مستوى الإبداع الأدبي المحدود جدا لدى هذا الابن الذي حلم أن يصير ناقدا أدبيا. لحسن الحظ أنه لم يصر كما حلم، وإلا لكان مجرد ببغاء يعيد إنتاج الركاكة، وما كان ليسمح للأدب أن يتطور كما أشتهي، وبالتالي لم أكن لأتطور وأنمو، فتطوري من تطور الذائقة الأدبية والفنية للقراء.

يا إلهي، صرت أستطرد في الحكي كطفل تعلم كلمة جديدة وصار يستخدمها في كل جملة، بمناسبة ودونها. اغفروا لي انتشائي كالأطفال باكتشافاتي الجديدة. أين وصلنا الآن؟ صحيح، كنا نتحدث عن الأب.

أسـوأ مـا حمـل الأب من صفـاتٍ العنـادُ. طبعـا لا غرابة في الأمـر لـو علمتـم أنـه ينحـدر مـن إحـدى قبائـل ريافـة عـلى تخـوم مدينـة الحسـيمة. العنـاد هنـاك يرضعونـه مـع اللـبن. الطريـف أنـه بقـدر مـا يفتخـر بأصلـه الأمازيغـي البربـري ودمـه النقـي غـير المختلـط بدمـاء بـدو الصحـراء، يفتخـر أيضـا بلقبـه العائـلي الشريـف المنحـدر مـن سـلالة الدوحــة الشريفــة، و «الشريــف» كان لقبــه المفضــل في الحانـة ولم يكـن يخـدم الزبائـن بالجـودة المطلوبـة إن لم يحترمـوا انتـماءه الشريـف لأحفـاد النبـي.

كان الأب نحيفـا. ذلـك النـوع مـن النحافـة الـذي يـأتي في حزمـة واحـدة مـع العصبيـة المفرطـة. لم يكـن يدخـن، وقـد كان عاقـلا كفايـة لكيـلا يـشرب الخمـر وبالتـالي لم يبــذر مــا كان يجمعــه في الحانــة مــن بقشــيش روادهــا عــلى الخمــر كــما كان يفعــل زمــلاؤه، ولذلــك اســتطاع خــلال ســنوات قليلــة امتــلاك شــقة واســعة في عــمارة وســط المدينــة، مــن بقايــا الاســتعمار الإســباني، تطــل

مباشرة على سور المعاكيز ومنها على ميناء طنجة، (حيث يمكنك خلال الصباحات الصافية أن ترى من نوافذ الشقة الضفة الجنوبية من القارة العجوز.) إلا إنه كان بخيلا أيضا. حسنا، لو شئتم الدقة هو لم يكن بخيلا بقدر ما كان حريصا لا يصرف الدرهم إلا في مكانه الصحيح ووقته الصحيح. الطريف أنه في المرة الوحيدة التي خرق فيها تلك القاعدة حصل على عائد خيالي من الإكراميات لم يكن ليحلم به أبدًا.

تلك المرة الوحيدة كانت مساء الحادي عشر من سبتمبر من السنة الأولى بعد تمام الألفية الثانية.

بدأ مرتادو الحانة يتوافدون مبكرا، هاربين من موجات رياح قوية مفاجئة رافقتها بعض السحب المحملة بالمطر. في لحظة ما دخل زبون مندفعا بلهفة وطلب تغيير القناة الموسيقية إلى قناة الجزيرة. تحلقت الرؤوس وتجمدت الأعين على الشاشة التي تنقل صور البرجين اللذين تحولا إلى مدخنتين تنفثان

اللهب والدخان قبل أن يهويا معا كأن يدا عملاقة انهالت عليهما وسوتهما بالأرض. ثم حين ذهبت سكرة المفاجأة جاءت الهتافات، وصدحت في الحانة لأول مرة أصوات التكبيرات. لمح الأب بطرف عينيه فرنسيين ينسلان خارجا. ابتسم ورفع عقيرته بأن الجولة التالية من الشراب على حسابه. هتف له الندماء مهللين. امتلأت الحانة لاحقا وقدم من جديد، في لحظة مس جنوني لم يملك لها تفسيرا، جولة مجانية أخرى من الشراب على حسابه الشخصي. كان الجميع يحتفلون وكانوا جميعهم يحللون الوضع بخبرة من رضع السياسات الدولية مع لبن الأم. برز اسم القاعدة قليلا وكانت الاستهجانات ترتفع منكرة قدرة تنظيم إسلامي مثل القاعدة على تنفيذ حدث بتلك القوة والفاعلية والسرعة. الأسلوب الكاميكازي للتنفيذ دفع الكثيرين للتفكير في منظمة الجيش الأحمر اليابانية. بعضهم فكر في عملية تخريب داخلية بنية تغيير

سياسات الحكم أو تمرير قوانين معينة. لا أحد فكر بجدية أن العملية يمكن ربطها بجماعة دينية تصنف نفسها تنظيما إسلاميا جهاديا. تلك الأمسية كانت للفرحة الطاغية بالضربة القاصمة التي تلقتها أمريكا المغرورة المعتدية التي كانت بحاجة إلى من يؤدبها قليلا. لاحقا سيأتي الحزن على الضحايا الأبرياء. ستشتعل الحانة في الأمسيات التالية بالنقاش حول الهجمات. سيرى بعضهم أن الضحايا أبرياء وسيرى آخرون أن الكفار كلهم أعداء ويجب قتلهم أينما كانوا، وسيقول بعضهم إن أولئك المواطنين مسؤولون عن سياسات حكوماتهم وبالتالي هم متواطئون ضمنيا ولهم ضلع في كل المآسي التي تسببت فيها الولايات المتحدة الأمريكية عبر العالم. لم يكن الأب مهتما بهذه النقاشات. كان ما زال منتشيا بالبقشيش الضخم الذي انهال عليه تلك الأمسية. ستتكرر النقاشات الصارخة الحادة نفسها بين الندماء بعد خمس سنوات، عندما

يشنق صدام حسين في صبيحة عيد الأضحى الذي جاء يوم الثلاثين من ديسمبر. هذه المرة لن تكون ثمة أي إكراميات، فالنقاش بين من فرح للإعدام ومن يرى في صدام البطل الذي يحتاج إليه العرب، تحول إلى عراك بالأيدي وترافس بالأرجل انقلبت على إثره الحانة رأسا على عقب. لن أطيل عليكم كثيرا بعيدا عن حدث حكايتنا الرئيس. سأخبركم فقط بأن الأب كان، بسبب عصبيته المفرطة وسهره في العمل طيلة الليل، لا يقبل أي همسة أو حركة في البيت تقلق راحة نومه طيلة النهار. الابن المسكين كثيرا ما كان يحدث من الضجة غير المقصودة ما كان يزعج الأب الذي يخرج من غرفته بعينين منتفختين وحزام سرواله الجلدي بإبزيمه الحديدي يفرقع في الهواء ليهوي به على ابنه كيفما اتفق، لدرجة أنه كان يتغيب كثيرا عن المدرسة عامدا حتى لا يرى زملاؤه آثار الحزام/السوط على وجهه .. لنعد الآن إلى بطلنا.

[3. موت صغير]

رمش بعينيه عدة مرات لكن لا شيء تغير. الرائحة النتنة ذاتها، التنميل ذاته على كامل نصفه الأيمن، والبلل ذاته تحته. تأكد مجددا أنه لا يحلم. فكر أنه بسبب تعب الأمس، حين تمشى طويلا كما لم يتمش منذ سنوات، وربما بسبب تمدده على الفراش بشكل غير صحي، تعرض جزء من جسده للتخدير، لذلك يشعر بالتنميل، أثر ذلك التنميل في المثانة بشكل ما ففقد السيطرة عليها، وهذا تفسير معقول لتبليله الفراش في هذا العمر، وهذا الفعل اللاإرادي الأخير هو سبب الرائحة. تنفس الصعداء حين تمكن من تفسير وتبرير ما نغص عليه استيقاظه.

بدأ الآن يتحرك لينقلب على ظهره، محاذرا أن يوقظ زوجته ومستغربا كيف أن الرائحة لم توقظها بعد. إلا أن تكون الرائحة أقل نتانة مما يتخيل هو. ابتسم وتابع تعديل وضعه.

كان نائما على جنبه الأيسر في أقصى جانب الفراش وكانت زوجته على أبعد نقطة منه على الجانب الآخر. حين أراد أن ينقلب على ظهره لم ينتبه أنه كان على الحافة، لذلك وبمجرد ما ودع مركز ثقله صلابة مرتبة الفراش حتى وجد نفسه طريحا على الأرض، وصرخ.

الفراش ليس عاليا، والصرخة لم تكن بسبب ألم السقوط.

حين سقط وتعرى من الملاءة التي كانت تغطيه لم يجد نفسه.

لم يجد جسده.

أول مـا رأتـه عينـاه هـو غابـة مـن الشـعر تغطـي صـدره. رفـع رأسـه أكـثر ورأى الشـعر الكثيـف يغطـي كامـل جسـده. رأى أصابـع قدميـه الأربعـة، غـير الأصبـع الإبهـام، التصقـت ببعضهـا واندمجـت في أصبـع واحـد مفلطـح كبـير. أدار رأسـه إلى اليمـين، تجـاه دولاب الملابس، تجـاه المـرآة التـي تغطـي بابـا كامـلا مـن الـدولاب، وعندهـا أطلـق صرختـه تلـك التـي هـزت أركان الشـقة وأيقظـت النيـام كلهـم. مـا رآه منعكسـا عـلى المـرآة لم يكـن هـو حتـما. هـذا الكائـن المشـعر كأنـه قـرد. قـرد قصـير. قـرد قـزم. لكـن جـواد لم يكـن قصـيرا. كان دومـا الأطـول في أي تجمـع بـشري يتواجـد ضمنـه.

ليـس يمكـن أن يكـون هـذا ممكنـا إلا أن يكـون محـض حلم .

لكنـه لم يكن حلما، ولا أقرب من ذلك.

قفـزت زوجتـه مـن الفـراش مذعـورة. وضعـت يدهـا عـلى قلبهـا تبسـمل وتحوقـل لاهثـة، وهـي تقلـب بصرهـا

في أرجـاء الغرفـة. تسـمرت عيناهـا المثقلتـان عليـه وهـو ينظـر إلى المـرآة بفـزع. اتسـعت عيناهـا، ونـدّت عنهـا بدورهـا صرخـة لا تقـل قـوة ورعبـا عـن صرخـة زوجهـا، ثـم سـقطت أرضـا مغشـيا عليهـا. في تلـك اللحظـة فتحـت ابنتهـما، ذات العامـين، عينيهـا المنغوليتـين وشـفتيها الثقيلتـين وانخرطـت في نوبـة بـكاء لـن تتوقـف عنهـا بسـهولة.

هبـت الأم مذعـورة، مـن السريـر، والتقـت في الصالـة بالابنـة وهـي خارجـة مـن غرفتهـا شـاحبة الوجـه محمـرة العينـين. ألقـت الأم نظـرة سريعـة محبطـة عـلى زوجهـا الـذي كان يفـرك جبهتـه بسـجادة الصلاة وهـو مسـتغرق في صـلاة طويلـة يبدأهـا يوميـا عنـد الفجـر ولا تنتهـي إلا بعـد أن يشـم رائحـة قهـوة الصبـاح.

طرقـت الأم بقلـب متوثـب بـاب غرفـة ابنهـا الموصـد، متسـائلة بلهـاث رئتيهـا الجائعتـين للهـواء عـما يجـري. لا رد سـوى بـكاء الحفيـدة التـي اسـتيقظت، بدورهـا،

علـى زعيـق أمهـا الـذي تجـاوز حـد تحملهـا للأصـوات المفاجئـة. أدارت الأخـت مقبـض البـاب بحـركات عصبيـة لا طائـل منهـا، وحاولـت دفـع البـاب بأقـوى مـا يسـمح بـه جسـدها الغـض، ذي الواحـد والعشريـن ربيعـا، ثـم طرقـت بكلتـا قبضتيهـا وصرخـت باكيـة تنـادي أخاهـا وزوجتـه. لا رد سـوى بـكاء ابنـة الأخ التـي لم تعتـد مثـل هـذه الضجـة الصباحيـة.

في أثنـاء ذلـك كان الابـن والأخ مـا يـزال مخطوفـا بسـحر المـرآة. مجمـدا إلى صـورة المسـخ، الشـبيه بقـرد، الـذي يطـل عليـه مـن عـالم آخـر كانـت المـرآة بابـا مشرعـا إليـه. يـرى الآن وجهـه بوضـوح ويكتشـف التشـويه الـذي يعتريـه بسـبب، مـا قـرأ يومـا أنـه يسـمى، شـلل الوجـه النصفـي. النصـف الأيمـن لشـفتيه متـدل بشـكل بشـع، وجفـن عـين ذات النصـف متـدل لدرجـة جحوظهـا وبـروز بياضهـا الـذي يـكاد يختفـي تحـت شـبكة مـن الشـعيرات الدمويـة.

تعـودت حاسـة شـمه عـلى نتانـة الرائحـة المنبعثـة منـه، ككبريـت يتبخـر بـه معبـد شـيطاني، وبـدأ يحـس أن شـكله الخارجـي قمـة في الجـمال حـين شـعر فجـأة بنهـر متدفـق مـن الدناسـة يجـري في عروقـه. انقبـض قلبـه ودمعـت عينـاه ثـم ارتعـد كامـل جسـده وتزايـدت وخـزات الجانـب الأيمـن المخـدر. أحـس بالانتهـاك كأن كائنـا غريبـا غـزا جسـده وسـكن فيـه. لـو كان يؤمـن بتلبـس الجـن للإنـس لفكـر مبـاشرة في أن ثقـل التدنيـس الـذي يشـعر بـه الآن هـو فيلـق مـن الشـياطين اسـتحوذ عـلى جسـده. لكنـه لا يؤمـن بذلـك. إلا إنـه سـيتذكر لاحقـا روايـة طـارد الأرواح وسـيقارن مـا يشـعر بـه مـع آثـار الاسـتحواذ التـي ظهـرت عـلى الطفلـة ريجـان.

بـين نهنهـات الطفلـة الباكيـة سيسـمع صـوت المفتـاح يـدور في قفـل البـاب. تذكـر أن والـده يحتفـظ بنسـخة احتياطيـة مـن المفاتيـح كلهـا. نظـر حولـه مرعوبـا وتوقفـت عينـاه عنـد المـلاءة عـلى الفـراش. مـد يـده إليهـا

وجذبها إليه وزحف إلى ركن الغرفة وغطى جسده بالملاءة، في اللحظة ذاتها التي فتح فيها الباب.

رأى أباه أول الداخلين. نظر إليه نظرة خاطفة لحظات وجيزة بدت فيها على وجهه أمارات الامتعاض ثم أشاح بنظره عنه ورآه يريح عينيه على جسد زوجته البارز تحت لباس نومها الشفاف المخرم.

رأى أخته تدفع الباب وتنظر إليه مباشرة. رأى الدماء تنسحب من وجهها لتسكنه الصفرة الفاقعة ثم هوت بدورها مغشيا عليها.

يسمع صرخة أمه قبل أن يراها تدفع أباه مبعدة إياه عن طريقها وتنحني على ابنتها. رفعت رأسها حين اطمأنت على تنفس ابنتها ورأى الصدمة ترسم معالمها على وجه أمه المتجعد قبل الأوان. رآها تنهض مسرعة تحبس دموعها وتحمل ابنته من مهدها وتخرج هاربة من الغرفة، ثم سيسمع بكاءها قادما من الصالة.

رأى أباه يتجاهل أخته ويحمل زوجته خارج الغرفة.

بدأت أخته تفيق. اتكأت على يدها وجلست. نظرت إليه بوجه تمور على سطحه موجات الألم والخوف والحزن والشفقة والرعب، ثم بدأت تبكي. أراد أن ينهض إليها، يواسيها وهو الأحوج للمواساة، لكن أباه دخل وأنهض ابنته وخرجا من الغرفة ثم أغلق الباب وراءه.

تمكنت والدته من إسكات طفلته. عم الصمت قليلا ثم سمع نهنهات زوجته التي تخيلها تجلس على الأريكة تحتضن ساقيها العاريتين وبياض فخذيها مشرعا باستسلام تحت نظرات أبيه.

سمع صوت الأب يأتيه زاحفا على الأرضية ويتسلل تحت باب الغرفة ويمر بمحاذاة الفراش ويتسلق قدميه حتى يدخل أذنيه مشبعا بالكراهية والمقت حاملا ثلاث كلمات: "أي شيطان هذا؟"

أغمض عينيه بآسى، ثم رفع رأسه وتجول ببصره في أرجاء غرفته. انتبه إلى أنه أثناء سقوطه من الفراش أسقط معه مصباح القراءة ومعه كتابا كان على المنضدة المجاورة للفراش. تذكر أن يده اندفعت، تلقائيا، حين شعر باختلال توازنه وبدأ سقوطه، للاستناد على المنضدة التي يستخدمها مكتبا، لكن يده اصطدمت بالكتاب الذي قرأه قبل نومه، فانزلقت وانزلق معها الكتاب وسقط وبجانبه الكتاب على وجهه.

دقق نظراته المندهشة في الصورة على غلاف الكتاب. تذكر الآن أين رأى ذلك الوجه. الرجل الملتحف بالسواد الذي رآه على القنطرة وبدا له مألوفا جدا أمس، إنه يشبه كافكا. بل كأنه فرانز كافكا ذاته، ما لم يكن يتخيل كل هذا.

[4. منطقـة الموت]

لا يعـرف إن كان يكـره أبـاه حقـا. بالتأكيد لم تكـن طفولته سـهلة. طبيعـة عمـل الأب الليـلي والنـوم طيلـة النهـار لم يسـمحا بنمـو علاقـة طبيعيـة بينهـما. ولـو أضفنـا عصبيـة الأب وعنفـه وعقابـه المبالـغ فيـه غالبـا لأخطـاء الابـن التافهـة سـنجد أنـه وإن لم يكـن الابـن يكـره أبـاه فهـو أيضـا لا يحبـه. لا يجـد في قلبـه أي شـعور بالمحبـة تجـاه الأب، وحتـى لـو كانـت ثمـة حفنـة مـن المحبـة في قلبـه ذات يـوم فهـي لا شـك قـد تسربـت خـلال أيـام المعانـاة التـي حمـل خلالهـا الابـن مسـؤولية العائلـة عـلى حـين غـرة. مـع ذلـك، لـن ننـسى أن هـذه الأسرة تعـد نفسـها عائلـة مغربيـة تقليديـة محافظـة مـن شـمال المغـرب.

ستجد الاحترام دائما في قلب الابن تجاه أبيه، ولو كان مدفوعا بالواجب مقيدا به، ليس إلا.

لكنه مع ذلك، أو ربما بسبب ذلك، لم يستوعب الكراهية المحمولة في سؤال أبيه الاستنكاري، ولا المقت والامتعاض في قسمات وجهه حين أطل على غرفته ورأى مرضه. نعم مرضه. صفق بكفيه. الآن وجد الكلمة المناسبة ليصف بها نفسه. إنه مريض. التدنيس الذي يشعر به ليس إلا مرضا. رمى الملاءة عنه وقام مخاطبا نفسه. لكل داء دواء وحتما لهذا المرض ما يطهره ويشفيه. لكنه لم يكمل قيامه. نخسته أشواك التنميل فسقط متألما وخرج أنينه من شفته المتدلية كعواء؛ عواء حزين دفع جسده ليرتعد بقشعريرة التعاطف لنفسه ولكل من يسمعه، وخمن أن أمه الآن ستغطي وجهها بكفيها وستبكي لألمه، وفعلا رآها من خلف الجدار تفعل ما خمن تماما، ورأى أخته تنهض لتهدهد الصغيرة التي عادت

لبكائهـا ورأى زوجتـه تشـيح بوجهها بعيـدا عـن بـاب غرفـة نومهـما ورأى أبـاه يأخـذ كأس مـاء مـن الطاولـة ويطـوح بهـا تجـاه بـاب الغرفـة فتتهشـم بصـوت زاد مـن بـكاء أمـه وابنتـه.

أحـس بقلبـه يتكـسر ويتفتـت مـع تهشـم الـكأس خلـف البـاب. تذكـر أن جريجـور سامسـا عـانى أيضـا معانـاة شـبيهة حـين خـرج إلى عائلتـه صباحـا ورأتـه كيـف صـار حيوانـا نجسـا، حـشرة مدنسـة عفنـة. والدتـه أغمـي عليهـا وانطلـق أبـوه يبـكي. أمـا السـكرتير الـذي جـاء موفـدا مـن مديـره ليسـتفسر منـه سـبب تغيبـه عـن العمـل فقـد قفـز مرعوبـا وهـرب مـن الشـقة قافـزا درجـات السـلم كأن الشـياطين تطـارده تـاركا عصـاه التـي قـام إليهـا الأب لاحقـا وبـدأ يهـش بهـا عـلى جريجـور المسـكين ليعيـده إلى غرفتـه، وفي أثنـاء ذلـك تعـرض لأذى جسـدي كبـير قبـل أن يقفـل عليـه في الغرفـة مكومـا عـلى الأرضيـة مصدومـا تنـزف جراحاتـه دمـا.

فكر أنه على الأقل أكثر حظا من جريجور سامسا. فباعتباره موظفا سيبقى راتبه مضمونا لأشهر ريثما يجدون دواء لدائه. كانت المرة الوحيدة التي اعتمد فيها على أبيه هي قبيل تخرجه من معهد المعلمين حيث تدخل أحد معارف الأب القدماء فجاء تعيين الابن داخل حدود طنجة، عكس زملائه الذين رمى بهم الحظ إلى أصقاع الجبال والقرى الباردة التي تنعزل عن العالم الخارجي كل شتاء. الآن سيحتاج للاعتماد على أبيه، مجددا ومرة أخيرة، لرشوة أحد الأطباء ليجهز له شهادة مرضية، دون الكشف عليه، ثم يأخذها إلى مدير المدرسة لتسجيل إجازته المرضية ويبقى محافظا على راتبه الشهري المضمون.

تلك أمنيته هو، وأنا لا أنوي أن أحقق لهذا البطل كل ما يشتهيه. الحكاية تبقى حكايتي. نعم، نعم. يفترض ألا أتدخل في الوقائع وأكتفي بالسرد بعيدا دون أن أحشر نفسي في التفاصيل كلها. لكن لو فكرتم في

الأمر ستجدون بأن الخيال يتدخل بضراوة في تشكيل الواقع؛ الحاضر والمستقبل وحتى الماضي. لذلك لن أتحرج من التدخل مباشرة، بين وقت وآخر، لدفع الأحداث نحو مسار معين. مثلا سأزور أحلام مدير المدرسة، الآن قبل أن يستيقظ، وسأستثير دماغه بأحلام تدفع عصبوناته لتشكيل ذكريات زائفة عن ذلك المعلم متجهم الملامح متهدل الكتفين الذي يشمئز منه بسبب إهانته لمهنة التعليم المحترمة بالعمل المسائي الذي يزاوله في السوق. المدير يكره هذا المعلم منذ زمن. كل ما سأفعله هو قدح تلك الكراهية النائمة بمشاهد زائفة تتعلق بالمعلم وزوجة المدير ستدفع المدير للاستيقاظ مذعورا وركوب أمواج غضبه قادما إلى بيت المعلم. لن أحتاج إلى أي تفاصيل أخرى. الغضب سيأتي بالمدير دون أن يسمح له بالتفكير في أي شيء آخر، وبمجرد ما سيرى المسخ الذي صاره المعلم سيبتسم بنشوة وسيتخذ الإجراءات الإدارية لحذف

اسم المعلم من سلم الوظيفة العمومية وإيقاف راتبه فورا.

خاطر الشهادة المرضية والراتب المضمون الذي سيبقى متاحا للعائلة سمح لبطلنا بفتح سجلات ذاكرته والولوج إلى ذكريات أحداث الخميس السابق باطمئنان أكبر وحزن أقل، وإن لم تنقص درجة غضبه شيئا.

لم يتوقع أنها ستهوي عليه بصفعة ستسكنها كل مقتها، وستتبعها بشتيمة تنزع عنه شرفه وهي تنتزع منه صندوق الفاكهة وترميه في سيارتها، ثم تعود إليه جارية والغيظ يتطاير شررا من عينيها، فتركله بين ساقيه ركلة انهار على إثرها أرضا يعوي من الألم، وتتبعها بركلة ثانية تصوبها إلى بطنه ثم ثالثة ترسلها إلى جنبه، قبل أن تتوقف لاهثة، واضعة يديها على خصرها، ناظرة إليه مرميا تحت قدميها يئن من الألم والقهر، وتصرخ فيه مجددا: «كيف تجرؤ يا ابن

الكلـب؟»

توقـف الزمـن وسـكنت الحركـة في السـوق تمامـا، إلا مـن قهقهـات مسـاعدها الـذي كان يضحـك، ويضحـك، ويضحـك، ويدفـع عربـة الخـضروات والفواكـه خلـف سـيارة الشرطيـة.

انحبسـت الدمـوع في مقلتيـه ومهانـة الصفعـة تؤلمـه أكـثر مـن آلام ركلات الشرطيـة.

افـترش الأرض منغلقـا عـلى نفسـه ضامـا ركبتيـه إلى صـدره، ينشـج دون صـوت. هـو لم يفعـل شـيئا سـوى مطالبتـه بثمـن الفواكـه التـي أخـذت. تـرك دموعـه تنحـدر سـاخنة عـلى وجهـه إلى أرضيـة السـوق المتربـة، وضحـكات الشرطـي تـتردد في أذنيـه في دورة لا منتهيـة مـن الصـدى، ووعيـه يتـسرب منـه شـيئا فشـيئا.

مـر الوقـت بقـدر بـدا لـه دهـرا، قبـل أن يحـاول النهـوض، متثاقـلا. جلـس عـلى ركبتيـه ونظـر إلى رفاقـه

الباعة الذين خفضوا أعينهم خجلا من عجزهم عن مساعدته. شرنقه اليأس في لحظة مباغتة فكر خلالها بالنهوض والتوجه فورا لشراء ما يكفي من الوقود ليحرق نفسه حيا أمام مبنى البلدية. ثم فكر في والدته وأخته اللتين ستبقيان دون معيل بعده. أقنع نفسه بأن العالم لا يحتاج الآن إلى بوعزيزي آخر، ونهض مثقلا بالمهانة نحو مرحاض المسجد لينظف نفسه ويعود إلى البيت ليكمل تجهيز دروس الأيام الأولى من الدخول المدرسي الجديد.

امتزجت دقات ساعة الحائط عند تمام الثامنة صباحا مع دقات عنيفة على باب الشقة فأفاق من خواطره دامع العينين متسائلا عن هذا الضيف المبكر. رفع عينيه وتجاوز بنظره الجدران مرسلا بصره إلى ما خلف باب الشقة ثم انتفض حين رأى مديره وصرخ بصوت مبحوح مختنق ألا يفتحوا الباب.

جاءت صرخته، التي وصلت إلى الصالة كخوار

مبهـم، متأخـرة بعـد أن كان أبـوه قـد نهـض وفتـح البـاب، هـو الـذي لم يفعـل ذلـك طيلـة حياتـه.

طلـب المديـر رؤيـة المعلـم فاعتـذر الأب مؤكـدا أن ابنـه مريـض مرضـا معديـا وليـس مـن مصلحـة أحـد رؤيتـه. أصر المديـر واحتـد جدالـه مـع الأب واشـتدت حـدة غضبـه ثـم دفـع البـاب وخطـى نحـو الصالـة وتوقـف مبهوتـا أمـام بيـاض زوجـة المعلـم. فقـط في تلـك اللحظـة، المتأخـرة، انتبـه الجميـع إلى أن الزوجـة الجالسـة وسـطهم بلبـاس نومهـا تبـدو شـبه عاريـة، فعـوى المعلـم سـاخطا وقـام متغلبـا عـلى وخـز التنميـل، حمـل المـلاءة، فتـح البـاب بقـوة كادت تخلـع مفاصلـه، اقتحـم الصالـة ورمـى المـلاءة عـلى زوجتـه.

تحـول المديـر بنظراتـه المخطوفـة نحـو الحيـوان المشـعر المشـوه الوجـه الـذي اقتحـم الصالـة، وحـين تمـلى في وجهـه صرخ. لم يـصرخ رعبـا. صرخ نشـوة وفرحـا، واسـتدار عـلى عقبيـه خارجـا يهـرول.

اعترض الأب طريق المدير راجيا إياه ومستجيرا بكل عزيز لديه ألا يخبر أحدا باللعنة التي نزلت على الابن. نظر المدير باشمئزاز إلى الأب واستدار إلى الابن ورمقه بنظرة انتصار ثم دفع الأب وقفز خارج الشقة.

لم تستوعب الأم شيئا ولا الأخت، في حين ارتسم الذعر على وجه الزوجة وهب الأب واقفا، ومد يده إلى المزهرية. حملها بكلتا يديه وقذفها، بكل ما تحمل نحافته وعصبيته من قوة، إلى صدر ابنه فتطايرت شظاياها وانغرزت في صدره وطرحته أرضا على ظهره. أراد الحيوان داخله أن يصرخ ألما، لكنه قاوم، كما قاوم منذ طفولته ألا يبكي تحت ضربات حزام أبيه. لملم نفسه وانقلب على جنبه وزحف إلى غرفته.

صرخت الزوجة بأنها غير قادرة على التحمل، وجرت نحو المطبخ وعادت بسكين كبيرة، وقبل أن ينتبه أحد كانت قد دخلت غرفتها.

شــعَّ الحقــد مــن عينيهــا وهـــي توجــه الســكين إلى زوجهـا مهـددة إيـاه بـألا يقـترب منهـا وفي الوقـت نفسـه كانــت تكــدس ملابســها، كيفــما اتفــق، في حقيبتهــا، ثــم أقفلــت الحقيبــة ودســت جســدها الطويــل ذا المفاتــن البــارزة في جلبــاب ضيــق وجــرت حقيبتهــا إلى الخــارج وهـــي مــا تــزال تلــوح بالســكين.

لم يســتطع أحــد الاقــتراب منهــا. حاولــت أمــه تهدئتهــا فزمجــرت في وجههــا حتــى انكمشــت الأم المســكينة، ثــم أخـيرا ألقـت الزوجـة عـلى طفلتهـا المريضـة نظـرة الخـلاص وغــادرت الشــقة.

لم يحــرك الأب ســاكنا وإن بــدا الامتعــاض واضحــا عــلى وجهــه. التفتــت الأخــت تجــاه الطفلــة المنغوليــة وتركــت جفنيهــا يفرجــان عــن دمعهــا المحتبــس. أمــا الــزوج فســقط مجــددا عــلى الأرض واســتند بظهــره إلى ركــن الغرفــة يــئن أنينــا خافتــا. قــام الأب وأغلــق بــاب غرفــة ابنــه، ليحــد مــن الأنــين الحيــواني الحزيــن.

لا يذكر متى ندم لأول مرة على زواجه، ولا متى اكتشف أن الزواج فخ اجتماعي يدفعك الجميع إليه دفعا بسادية مفرطة حتى تعم المعاناة التي يخفيها كل من يكتشفها، عن بقية العزاب، إلى أن يتورطوا بدورهم. لكنه على أي حال كان مضطرا للزواج بعد تلك الغلطة الشنيعة التي ارتكبها؛ بعد تلك النبتة الشيطانية التي زُرعت قبل الزواج.

لم يكن حبا. لكن بالتأكيد كان ثمة إعجاب متبادل سمح لهما بالمرور من تلك الفترة بأمان. لم يتخيل يوما أن يفعل ذلك، وأن يقع في ذلك الخطأ. ما يزال حتى اليوم لا يعرف تحديدا ماذا حدث. كان يتعالج من حروق بالغة في يديه وصدره، بسبب انسكاب إبريق الشاي عليه في قاعة المعلمين. وهي كانت ممرضته التي رعته بكل احترافية طيلة أيام في مستشفى محمد الخامس. هل كانت الوحدة، الإحباط، الاكتئاب، الغضب، أم رغبته الخالصة في تدمير نفسه؟ ربما تلك

المشاعر المستعرة كلها مجتمعة أرخت بسدول ضبابها على عينيه وهدمت دفاعاته فأسلم نفسه لأحضان تلك المرأة. ناره المتأججة لم يكن لها من حل إلا أن يقذف بركانه حممه. لكنه أحيانا، في لحظات الشك الشيطاني، يفكر أنها سحبته إلى أعماقها تلك الليلة لتمنح نفسها سفينة نجاة بديلة بعد أن تخلى عنها زارع البذرة الحقيقي. ستمر السنوات وسيعود ذلك الشك مجددا، ولن تبقى الأمور بعد ذلك كما كانت أبدًا.

بعد أشهر قليلة ستجهض تلك النبتة، وستدخل فترة اكتئاب ستتركها جثة هامدة. استغرب من نفسه حين لم يحزن لذلك الفقد الذي عدّه خلاصا، لذلك حين تمخض الحمل الثاني عن طفلة مصابة بمتلازمة داون فكر تلقائيا أن الأمر عقاب إلهي لجحوده وشكه في زوجته، التي كاد يتخلى عنها بعد إجهاضها الأول لولا أن غلبت شفقته.

الآن وهو مكوم في الركن يئن بدأ يحس بندم شديد على إبقائه على هذه الزوجة التي كانت أول من تخلى عنه.

لكنها في الحقيقة، فكر، لم تتخلَّ عنه اليوم، بل قبل اليوم بكثير.

في لحظة ما غلبه النوم. أو لعله فقد الوعي تماما وهو مكوم في ركن الغرفة. بقي أفراد الأسرة ملتصقين بأماكنهم طيلة الصباح إلى أن انطلق أذان الظهر من مسجد الحي. انتبهت الأم كأنها أفاقت من سبات عميق. فكرت أنها لم تجهز لعائلتها طعام الغداء، ولا أحد منهم قد أفطر بعد. اتكأت بثقل يديها على مسندي المقعد لتنهض. لم يكتمل نهوضها وتركت نفسها تسقط مجددا واستسلمت لنوبة بكاء جديدة نادبة حظ ابنها المسكين، ومؤكدة، بغليظ الأيمان؛ بالنعمة الشريفة والكعبة الطاهرة، أن جارتهم هي التي سحرت ابنها بعد أن رفض الزواج بابنتها التي

يعـرف سـكان المدينـة كلهـم أنهـا امـرأة منحلـة ترافـق رجـال المدينـة جميعهـم.

زمجـر الأب في وجهها ونهرهـا لتصمـت، ثـم قـام وفتـح البـاب بهـدوء وأطـل بحـذر عـلى الوحـش الـذي ابتـلي بـه هـذا الصبـاح. عـاد وأغلـق البـاب وتوجـه نحـو زوجتـه وابنتـه. «إنـه نائـم الآن. دعكـما مـن هـذا البـكاء وجهـزا لنـا مـا نسـد بـه رمقنـا.» وخـرج ليصـلي صـلاة الظهـر.

قامـت الابنـة تـواسي أمهـا، مذكـرة إياهـا أن موضـوع ابنـة جارتهـم قديـم لـه مـن العمـر ثـلاث سـنوات. لـو كانـت جارتهـم تريـد أن تسـحر أخاهـا لفعلـت ذلـك منـذ زمـن طويـل. توقفـت الأم لحظـة وأعـادت بتصميـم. هـي زوجتـه إذن. تلـك الأفعـى. أنـا لم أثـق بهـا مـن قبـل. أخبرتـك مـن قبـل أنهـا حبلـت قبـل عرسـها. إنهـا سـاحرة خدعـت أخـاك الطيـب، ثـم حـين لم يعـد يناسـبها مسـخته بسـحرها لتهـرب منـه.

يـا لإيمـان الأمهـات. فكـرت الابنـة وهـي تسـاعد أمهـا

عـلى النهـوض لتجهيـز لقمـة لـلأب قبـل أن يعـود مـن صلاتـه؛ فـلا قـدرة لهـما عـلى تحمـل غضبـه، ليـس الآن وأخوهـا في غرفتـه لا يعلـم أحـد، إلا اللـه، مـا أصابـه.

[5. الرجل في المبنى الشاهق]

فتح عينيه وتمطى باتساع ذراعيه متثائبا. شعر بالراحة وابتسم بنشوة العبور من قمم الآلام. لقد استيقظ أخيرا من الكابوس الذي بدا له طويلا. كابوس رأى فيه نفسه تحول إلى مسخ مشعر قزم كأنه قرد شيطاني. شهق الهواء بملء فمه وأنفه ساعيا لانتشاء العودة من الغرق، لكن الرائحة العفنة لطمته ففتح عينيه باتساعهما ورفع كفيه ليجد يدين غير يديه الطبيعيتين. لم يكن كابوسا جثم على صدره ليلا. بل الواقع الذي استيقظ عليه منذ الصباح.

انتبه للصمت المطبق الذي يغلف البيت وانتبه إلى اللون الأخضر الفوسفوري الذي يلون الموجودات

علـى بـصره. رفـع عينيـه إلى السـاعة فوجدهـا تقـترب مـن منتصـف الليـل، ورأى أن الأنـوار مطفـأة. يبـدو أنـه نـام طيلـة سـاعات النهـار وجـزءًا مـن الليـل. فكـر. ربمـا كان فاقـدا للوعـي شـبه ميـت. تذكـر المزهريـة الزجاجيـة التـي لطمـه بهـا أبـوه عـلى صـدره، وتذكـر الشـظايا والدمـاء النازفـة مـن جسـده. أمـال رأسـه فـرأى شـظايا زجاجيـة مدمـاة عـلى حجـره ورأى صـدره نظيفـا مـن الزجـاج. تلمسـه بأصابعـه مـرة ومـرة، ومـرة أخـرى. وجـد أن جراحـه شـفيت تمامـا.

تجـول بوعيـه وبـصره في أرجـاء الشـقة فـرأى أختـه نائمـة في غرفتهـا وبجانبهـا طفلتـه الوديعـة. ورأى أبـاه يغـط في فراشـه وبجانبـه أمـه مسـتلقية عـلى ظهرهـا تحملـق في السـقف.

انقبـض صـدره مـن معانـاة أمـه. حـك جبهتـه محـاولا تذكـر تفاصيـل قصـة التحـول وخـط الأحـداث التـي مـر بهـا جريجـور سـامسـا. بعـد أن أقفـل عليـه أبـوه بـاب

غرفتـه استسـلم جريجـور للنـوم، وحـين اسـتيقظ صباحـا وجـد أن جراحــه شـفيت وبأنــه أصبـح أفضـل، ووجـد أختـه أحـضرت لـه طعـام الفطـور.

حـين وصـل لهـذه النقطـة مـن مسـار الحكايـة تحركـت حاسـة الشـم لديـه وتتبعهـا إلى مدخـل غرفتـه حيـث تـرك لـه أحدهـم طعامـا. لا شـك أنهـا أختـه، فرائحتهـا قويـة بجانـب الأطبـاق.

قفــز عــلى أطرافــه الأربعــة وتشــمم الأطبــاق. دفــع بتقـزز طبـق الخـضروات المسـلوقة وحمـل صحـن اللحـم. شرب المـرق باسـتمتاع ثـم وضـع الطبـق وحمـل قطعـة اللحـم بيديـه وضغـط عليهـا بأصابعـه يحشـو بهـا فمـه. سـال الدهـن والمـرق عـلى ذقنـه وانزلقـا مـن يديـه إلى مرفقيـه. مضـغ ومضـغ ومضـع ثـم ابتلـع وتجشـأ بهديـر جامـح، وعـاد يلحـس يديـه حتـى المرفقـين. أخـذ إنـاء المـاء وتجـرع منـه مبـاشرة. ازرق وجهـه وقـذف المـاء المتجمـع في فمـه كلـه وبصـق مـرة تلـو المـرة حتـى خرجـت آخـر

قطـرة مـن المـاء الـذي هـم بشربـه. صرخ مغتاظـا وقـام وفتـح نافـذة الغرفـة وسـكب مـا في الإنـاء مـن مـاء. تجاهـل السـباب الصاعـد مـن الشـارع مـن شـخص مـا نزلـت حمولـة الإنـاء عـلى رأسـه، وعـاد إلى الداخـل. توجـه إلى ركـن الغرفـة. أرخـى سروال نومـه وقـرب الإنـاء إلى بطنـه. صـدرت مـن فمـه هتافـات غبطـة قصـيرات متتاليـات وتنهيـدات ارتيـاح. رفـع سرواله. نظـر إلى صفـرة السـائل الـذي مـلأ الإنـاء حتـى حافتـه، وتجرعـه كامـلا. تجشـأ مجـددا بالهديـر المزلـزل ذاتـه وربـت عـلى بطنـه بشـبع.

توقـف مسـتندا إلى النافـذة منتشـيا بالنسـيم الليـلي البـارد. أغمـض عينيـه وشـحذ حاسـة سـمعه لالتقـاط الـكلام القـادم مـن الشـارع والشـقق المجـاورة. أول مـا وصلـه صـوت صبيـة تهمـس عـبر الهاتـف بـكلام فاحـش واللهـاث القـادم مـن رفيقهـا عـلى الطـرف الآخـر. اقشـعر بدنـه نشـوة. ارتكـز عـلى إطـار النافـذة ورفـع جسـده

وجلس مقرفصا يطل على ليل طنجة كشيطان على عرشه يشرف على مملكته. أدار رأسه إلى اليسار وابتسم برضى حين صعد بصره عبر شارع بلجيكا وانعطف إلى شارع مكسيك حتى وصل إلى رأس المصلى ورأى ثلاثة أجساد ضخمة مسلحة بمدية طويلة وهراوتين يعترضون مسار زوجين. أخذوا حقيبة يد الزوجة، محفظة الزوج والهاتفين والساعتين. أراد أحدهما ما هو أكثر فضم إليه الزوجة وأرسل يديه إلى أسفل ظهرها. أراد زوجها أن يلعب دور البطولة فهوت الهراوة على رأسه مرة بعد الأخرى حتى تهشم. كمم أحدهم فم الزوجة لتصمت عن صراخها ثم حملوها معهم في طريق هروبهم.

صفق القرد في النافذة بمرح وحك إبطه باستمتاع. نظر إلى يمينه على بعد بضعة أمتار إلى الفندق السياحي. رأى خلف ستائر إحدى النوافذ السرير يهتز. وضع قبضته تحت ذقنه وأغمض عينيه منتظرا

بضع دقائق حتى سمع الخوار وتوقف اللهاث. فتح عينيه ورأى صاحب الخوار ذا البطن المترهل ينهض إلى الحمام. قامت رفيقته فورا وأدخلت جسدها في فستانها القصير، ثم قفزت إلى الجانب الآخر من الفراش وأخرجت من سرواله محفظته السمينة. أخذت الأوراق النقدية والبطاقات البنكية ورمت جواز السفر بعد أن تأملت قليلا في صورته بالعقال والسكسوكة. كومت قطعتي ملابسها التحتية في حقيبة يدها وحملت حذاءها ذا الكعب العالي بيدها وخرجت حافية.

هز القرد رأسه بإعجاب وأرسل لها قبلة في الهواء، ثم صوب نظره أقصى اليمين، عند نهاية البوليفار، حيث صرخت كوابح سيارة رياضية مستنكرة التوقف المفاجئ. خرجت من الباب المجاور للسائق شابة تلبس تنورة قصيرة بالكاد تغطي استدارة ردفيها، وقميصا فوق سرتها بالكاد يغطي السواد المحيط

بالحلمتين. صفقت الباب بقوة وشتمت السائق الذي خرج وصرخ فيها بوصف العاهرة. توقفت واستدارت إليه لترد وصف العهر لأمه. انحنى داخل السيارة وخرج بمسدس في يده. صوبه إلى صدرها. تجمدت المرأة في مكانها واعترى الرعب حامل المسدس الذي بدا أنه يصارع قوة خارجية تتحكم في يده. أراد أن يرخي قبضته على المسدس لكن أصابعه ضغطت الزناد. ارتخت يده أخيرا وسقط المسدس. دخل سيارته وهرب كأن الشياطين تطارده.

خرقت الرصاصة سكون الليل فبدأت بعض الأنوار تظهر من النوافذ وبعض الرؤوس تطل باحثة عن مصدر الصوت الغريب. رأى بعضهم جثة فتاة الليل المكومة على الرصيف دون أن يقدروا على تدقيق التفاصيل، فحسبوها مجرد متشرد نائم هناك كعادة المتشردين في ظلمة هذه المدينة، أو لعله مخمور أفرط في السكر طردته إحدى الحانات القريبة.

عـادت الأنـوار لتغمـض عينيهـا وتسـتكين تحـت جنـاح الليـل، وبـدأ القـرد ينزلـق عـبر نوافـذ المبنـى نـازلا إلى الشـارع قاصـدا مهمـة، لـن يعـرف عنهـا بطلنـا شـيئا رغـم أنـه حـين سيسـتيقظ صباحـا سـيجد يديـه ملطختـين بـدم غريـب ولـن يعـرف كيـف أتـت تلـك الدمـاء إلى يديـه. سـيفكر في خاطـر غريـب لاحقـا حـين تـأتي الشرطـة بخـبر مقتـل زوجتـه، لكنـه سرعـان مـا سـينفضه مـن رأسـه فهـو خاطـر شـيطاني غـير عقـلاني مسـتحيل تمامـا.

لنـترك الآن القـرد لمهمتـه والمعلـم لخسـارته والـزوج لنقمتـه والأخ لغبنـه، وتعالـوا معـي نـرى مـاذا يفعـل الآخـرون.

حتـى أسـهل عـلى نفـسي الحـكي وأسـهل عليكـم متابعتـي أجـدني مضطـرة لتسـمية شـخصيات هـذه الحكايـة. فلنسـمِّ بطلنـا باسـم جـواد، ولتحمـل الأخـت اسـم هنـد والأم سـتكون فاطمـة وابنتـه الرضيعـة أمـل. لا حاجـة لتسـمية الزوجـة فهـي سـتموت قريبـا. أو الأفضـل

أن أعطيهـا اسـم سـارة قـد أحتـاج لذلـك. أمـا الأب فهـو محمـد ولقـب العائلـة سـيكون الإدريـسي.

[6. الإغواء الأخير للمسيح]

لم تنم الأم ليلتها تلك، ولا الليلة التي بعدها، ولا التي تلت ولا أي ليلة أخرى. سكنها أرق مقيم إلى أن مات ابنها. عندها تنهدت الصعداء ونامت.

قضت ليلتها الأولى مستلقية على ظهرها بجانب زوجها النائم، تردد بعض الأدعية التي تحفظ وسور القرآن القصيرات التي حفّظها لها جواد بصبر وأناة لأجل أداء الصلوات. يأتي شخير زوجها ليخرجها من تركيز الأدعية والآيات فتنتقل إلى الدعاء بالسخط وإلقاء اللعنات على جارتهم التي لا شك سحرت ابنها، ثم سرعان ما تتوقف عن التمادي وتستغفر الله عائدة إلى الأدعية والمعوذتين، إلى أن يخرجها شخير

زوجها مجددا من تركيزها.

قلبها يتقطع على جواد، وتفكر ماذا كانت ستفعل لو أنه ابنها الحقيقي. تحرك رأسها يمنة ويسرة بعنف هستيري تحاول طرد الفكرة من رأسها. تصر على أسنانها وتتمتم لنفسها. «لا فرق. جواد ابني.» وتتذكر كيف سحرتها عيون الرضيع الواسعة وكيف غرقت في بحر تلك العينين البراقتين الواسعتين البريئتين.

ولدت في حي مرشان، وتعود أصولها إلى قرية بني بوفراح المتاخمة للحسيمة. جاءت عائلتها هربا من المجاعة فاستقرت عاما في تطوان حيث اشتغلت والدتها خادمة لدى عائلة إسبانية، ثم شدت العائلة الرحال مجددا فنزلت بطنجة حيث لم يكن الوضع أفضل. مرت فاطمة بسنوات من المعاناة والفقر والحرمان خلال طفولتها ومراهقتها، لذلك حين جاءها محمد الإدريسي، المنحدر من القرية نفسها، خاطبا لم تتردد ووافقت فورا، رغم أنه جاء وبين ذراعيه

رضيعه الذي بالكاد أكمل عاما. لو شئتم الدقة هي أقنعت نفسها أنها وافقت، فالحقيقة أن أباها كان سيزوجها سواء وافقت أم لم توافق.

أخبرهم الخاطب أنه أرمل توفيت زوجته وتركت له الرضيع جواد. في ذلك الزمن لم يكن بالإمكان التحقق بسهولة من ذلك. وستعرف فاطمة، بعد سنوات، أنه كذب. لم يكن أرملا. تخلى عن زوجته في تطوان وجاء حاملا ابنهما، تاركا المرأة المسكينة تجوب الشوارع، تفترش الأرصفة، وتسأل المارة إن رأوا وليدها جوادا. بقيت مشردة أشهرا إلى أن صادفتها إحدى الراهبات الإسبانيات فأخذتها واعتنت بها.

بعد سنوات ستعرف أم جواد طريقها إلى بيت فاطمة، وسترفض فاطمة، التي ستعاني من العقم لسنوات قبل أن تحبل بهند، أن تعيد لها ابنها. لسببين، أولا هي اعتنت بالطفل لثلاث سنوات وما عاد بالإمكان فصله عنها، إنه ولدها الآن شاء من شاء

وأبي مـن أبي. وثانيـا هـي لـن تسـلم طفـلا مسـلما لامـرأة غـيرت دينهـا وتحولـت إلى المسـيحية. أول مـا فعلـه الأب عنـد عودتـه هـو جـر زوجتـه الأولى مـن شـعر رأسـها ورميهـا خـارج البيـت حافيـة. لم تتقبـل فاطمـة ذلـك العنـف مـن زوجهـا تجـاه زوجتـه الأولى، التـي مـا تـزال في ذمتـه، إلا أنهـا بقيـت خرسـاء صامتـة. كانـت خائفـة مـن مثـل مـا فعـل بزوجتـه الأولى ويأخـذ منهـا جـوادا. بعـد ذلـك بأيـام قليلـة حملـوا أثـاث بيتهـم القليـل وارتحلـوا للاختفـاء في الحـي الشـعبي بـئر الشـعيري.

انفلتـت دمعـات مـن عينـي فاطمـة وانزلقـت عـلى وجنتيهـا المتجعدتـين قبـل الأوان. عمرهـا سـتة وأربعـون لكـن مـن يراهـا يحسـبها عـلى مشـارف السـتين. تسـاءلت إن كان الابتـلاء الـذي أصـاب جـوادا هـو عقـاب مـن اللـه لهـا ولزوجهـا لمـا فعـلاه بـالأم المسـكينة، أم جـواد الحقيقيـة.

جـاء أذان الفجـر وبـدأ زوجهـا يتقلـب اسـتعدادا

للاستيقاظ. أغمضت عينيها متظاهرة بالنوم، وانقلبت على جنبها الآخر مديرة ظهرها لزوجها. بقيت كذلك حتى سمعت باب الشقة يغلق خلف الزوج الذي خرج إلى المسجد، ثم قامت بدورها. ذهبت أولا إلى غرفة جواد. واربت الباب قليلا وأطلت من الفرجة الضيقة. رأته على فراشه ممددا تحت غطائه والنافذة مشرعة على نسيم الفجر البارد القادم معبقا برائحة البحر. رغم ذلك أزكمتها دفقة من الرائحة النتنة فغطت على أنفها مقاومة شعورا جارفا بالغثيان. عادت خطوة إلى الخلف وأغلقت الباب.

توضأت وصلت صلاة الفجر، ثم جهزت المبخرة وعادت إلى غرفة ابنها لترقيه. قربت المبخرة من أنفها لتتغلب على رائحة الغرفة ثم دفعت الباب. انقبض قلبها حين وجدت أن جوادا تقلب وانزلقت عنه الملاءة وتجمدت عيناها على صدره المشعر بغزارة وقدميه المشوهتين وشفته المتدلية. استغفرت وحوقلت

واستعاذت بالله من الشيطان الرجيم، ثم اقتربت من الفراش لتبدأ طقوس الرقية غير أنها أسقطت المبخرة وصرخت حين رأت الدماء تغطي يدي جواد إلى المرفقين.

انفتحت عينا جواد فارتعبت الأم أكثر من الحمرة القانية التي غطت البياض كله. فتح الابن شفتيه وأراد أن يقول شيئا وهو يحرك يديه بحركات لم تفهم منها الأم شيئا، ولم يخرج من شفتيه سوى همهمات غامضة تكاد تكون زمجرات وحش يتألم. غطت الأم وجهها بيديها وأحنت رأسها إلى صدرها. جاءت هند في تلك اللحظة ورأت ما رأت أمها. ربتت على كتفي أمها ثم طوقت خصرها وأخرجتها.

ارتمت الأم على الأريكة وألصقت ركبتيها بصدرها وانطلقت تنشج بخفوت وببكاء متقطع شبه صامت. استمرت كذلك حتى عاد الأب من صلاته فقطعت بكاءها دفعة واحدة وقد اتخذت قرارها بشأن ما

ستفعل.

بعد الإفطار عاد الأب إلى الفراش. أطلت الأخت على أخيها، ونظر الواحد منهما إلى الآخر نظرات صامتة، وتركت له فطوره بجانب الباب ثم عادت وأقفلت الباب. أما الأم فقد قامت لتلبس جلبابها وتسدل على وجهها لثامها الأبيض ثم خرجت متوجهة إلى فقيه سمعت الكثير عن بركاته.

يفترض أن تأخذ معها ابنها المبتلى بهذا السحر، لكنها تعرف استحالة ذلك، فاكتفت بأخذ قميصه من سلة الملابس المتسخة، وذهبت إلى مشوارها، حيث سيؤكد لها الفقيه، بثقة من سمع قصتها التي حكتها قبل دخولها إليه، أن ابنها مسحور والفاعلة امرأة سوء تريده لابنتها. السحر وضع تحت ممسحة القدمين خارج الباب وقد خطا عليه عند خروجه ثم عند دخوله، ثم أخذت امرأة السوء السحر ورمته في الحمام وقد وصل الآن إلى البحر حيث لا يمكن

أبـدا اسـتعادته. «مـا الحـل الآن؟» خـرج السـؤال مـترددا مرتبــكا مــن امــرأة لم تتعــود الخــروج مــن البيــت دون رفقــة زوجهــا أو ابنتهــا، فأخــذ الفقيــه قميــص الشــاب المسـحور، تفـل فيـه ثـم أشـعل النـار فيـه وتركـه يحـترق فـوق صفيـح معـدني عـلى يسـاره، وانتظـر حتـى احـترق تمامـا، ثـم قـام وجمـع الرمـاد وسـكب عليـه قليـلا مـن الحـبر، وتفـل فيـه مجـددا، ثـم غمـس القلـم في الحـبر المختلـط بالرمـاد وخـط بعـض الخربشـات في ورقـة خشـنة، ثـم طواهـا بعنايـة بعـد أن انتهـى ووضعهـا في حجـاب سـلمه لـلأم المكلومـة وطلـب منهـا أن تضعـه في عنـق ابنهـا أو، إذا تعـذر ذلـك، تحـت مخدتـه.

قامــت الأم ووضعــت عشريــن درهــما في يــد الفقيــه، فزعـق الفقيـه ورماهـا كأنهـا جمـرة مشـتعلة، ثـم صرخ بصـوت مرتفـع مسـتعيذا باللـه مـن الشـيطان وقـال إن سـحر ابنهـا سـحر صعـب تطلـب منه جهـدا جهيـدا، والجن الأزرق الـذي يخدمـه لا يقبـل إلا أزرقـا. اسـتدارت الأم

وأخرجـت مـن صدرهـا محفظتهـا وأخرجـت منهـا الورقـة النقديـة الزرقـاء وتحـسرت عـلى الأيـام الخـوالي التـي كان فيهـا الفقهـاء يقنعـون بخمسـة دراهـم. الآن يطلبـون مئتـي درهـم. اختطـف الفقيـه ورقـة المئتـي درهـم مـن يدهـا وابتسـم لهـا كاشـفا عـن أسـنانه النخـرة. «إنـه الغـلاء سـيدتي. حتـى أسـيادنا الجـن يعانـون مـن الغـلاء.»

ستتحسر المسـكينة فاطمـة قريبـا عـلى ذلـك المبلـغ الفـادح حـين تجـد أن الحجـاب الشـافي جـاء بأثـر عكسي. فقـد رأت، بعينيهـا اللتـين سـيأكلهما الـدود، كـما حكـت لاحقـا لامـرأة عنـد فقيـه آخـر، بأنهـا مـا إن تسـللت عـصرا إلى غرفـة ابنهـا، وقـد حمـدت اللـه أنـه كان نائمـا مجـددا، ووضعـت الحجـاب تحـت مخدتـه حتـى رأت حاجبيـه ينمـوان بشـكل مخيـف. تجمـدت برهـة مصدومـة مرتعبـة، ثـم مـر الخاطـر برأسـها فجربـت أن تخـرج الحجـاب مـن تحـت المخـدة ورأت، لعجبهـا، أن شـعر الحاجبـين عـاد لحجمـه. وضعـت الحجـاب مجـددا،

وهـذه المـرة رأت اللحيـة تطـول وتطـول حتـى تدلـت علـى الفـراش. قاومـت بصعوبـة ألا تسـقط فاقـدة الوعـي وسـحبت الحجـاب مجـددا، فعـادت اللحيـة تقـصر كـما كانـت مـن قبـل. قـررت أن تحـرق الحجـاب وتبحـث عـن فقيـه آخـر. وهـو أمـر سـيتكرر مـن فقيـه إلى آخـر طيلـة شـهرين، قبـل أن تقـرر في الختـام الاستسـلام لقضـاء اللـه وقـدره.

[7. الأيـام (1)]

الاثنـين، ٢٩ غشـت: شـعرتُ بقبضـة فولاذيـة تطبـق عـلى قلبـي في اللحظـة التـي ثقبـت طبلتـي أذنيَّ الصرخـةُ التـي حسـبتها أول وهلـة صيحـة يـوم القيامـة قبـل أن أنتبـه لنـبرة صـوت أخـي المخفيـة تحـت خـوار الصرخـة وكاد قلبـي ينخلـع مـن صـدري حـين جـاءت الصرخـة التاليـة بصـوت زوجتـه صرخـة ذعـر حيـواني تبعهـا صـوت ارتطـام جسـم حـي بـالأرض. قفـزت مـن سريـري وهرولـت إلى البـاب فلقيـت مامـا متوجهـة نحـو غرفـة أخـي أمـا الوالـد فقـد كان سـاجدا يحـاول قتـل أكـبر عـدد ممكـن مـن خلايـا جلـد جبهتـه لتمديـد رقعـة زبيبـة الصـلاة لديـه. طرقنـا البـاب كثـيرا وطويـلا دون أي رد مـن الداخـل.

رأيت الدموع الصامتة تبلل وجه ماما وأكاد أقسم بأني سمعت صوت دقات قلبها المتواثب. تدفق الأدرينالين بغزارة في عروقي وشعرت بقوة خارقة تتملكني. أمسكت مقبض الباب وأنا واثقة تماما من قدرتي على سحقه بيدي العارية المتعرقة غير أن الوالد كان أسبق وأولج المفتاح الاحتياطي. لحسن الحظ أن رتاج الباب من النوع الذي يمكن فتحه من الخارج حتى لو كان المفتاح الآخر مولجا في الداخل. انفتح الباب وشعرت بدفقة من الهواء الساخن النتن تلطم وجهي كزفير غول وتجشؤ ضبع وكهواء محبوس في مقبرة فرعونية. تراجعت خطوة إلى الخلف ودخل الوالد أولا. رأيت من خلف كتفه زوجة أخي ممددة على الأرض لا أعرف إن كانت ميتة أم فاقدة للوعي ليس إلا. رأيت نظرات الوالد تتوقف طويلا على ثديها المنفلت من قميص نومها. خطوت إلى الأمام ورأيت بركن عيني كتلة سوداء في ركن الغرفة.

أدرت رأسي ورأيت مخلوقا غريبا بدا لي من أول وهلة كقرد يلبس سروالا ثم حين رمشت عيناي بدا لي جَديا جالسا على كفليه ورمشت مجددا فرأيته قزما بشريا مشعرا بالكامل ورأيت وجهه كأنه وجه أخي الحبيب ثم هجمت على عيني غمامة سوداء كثيفة وشعرت بالأرض تدور بي وشعرت بالأرض تلطمني بقسوة وسمعت صرخة ماما وأحسست بأناملها على عنقي. ذهبت الغمامة السوداء وفتحت عيني. سمعت بكاء والدتي من الصالة ولم أر زوجة أخي على الأرض. نهضت بصعوبة وأنا أشعر بإرهاق عظيم كأن أحد ديمنتورات أزكابان كان جاثما فوقي. تسمرت عيناي على وجه أخي المكوم في ركن الغرفة وشعرت بقشعريرة باردة تنزل عبر عمودي الفقري وشعرت بشحنات كهربائية تتسرب من الأرض إلى أصابع قدمي وشعرت بمزيد من الدوار والغثيان بسبب الرائحة التي لا يمكنني وصفها سوى بكونها رائحة شيطانية بل هي رائحة

الشيطان نفسه لا محالة. تذكرني الوالد العزيز أخيرا وعاد يساعدني على الوقوف وأخرجني من غرفة أخي ثم أغلق الباب. ارتميت على الأريكة بجانب ماما التي كانت تهدهد طفلة أخي المسكينة التي ولدت بالخلل الجيني المعروف شعبيا بالعته المنغولي. كانت أمها بعيدة عنها تحتضن ساقيها وعيناها شاردتان في عالم ما. أنا واثقة أنها كانت تفكر في المخرج المناسب لتهرب من هذا الزواج ومن ابنتها التي لم تطقها يوما. لا أعرف ما الذي جذب أخي لهذه المرأة المتعجرفة المادية حتى النخاع. قالت ماما إن الحمل الأول حدث قبل الزواج. ذلك هو السبب الوحيد الذي دفع أخي لاستعجال زفافه بهذه الأفعى الرقطاء. دفعت ماما بعيدا عن تلك الفكرة حتى لا يزل بها لسانها يوما أمام الشخص الخطأ رغم أنني كنت مقتنعة أيضا بأن ذلك الحمل النجس الذي وقع فيه أخي الطيب لسبب ما هو الشيء الوحيد

الـذي يمكـن أن يجمعـه بتلـك المـرأة الفارغـة التـي تعـد هـذا البيـت فندقـا وعائلـة زوجهـا خدمـا لديهـا. للأسـف الشـديد لم تخـب ظنـوني مجـددا. بعـد سـاعة ونصـف دقـت السـاعة الثامنـة وسـمعنا دقـا عنيفـا عـلى البـاب. الطـارق كان مديـر مدرسـة أخـي وحـين دخـل رغـم أنـف الوالـد رأى الحـال الـذي صـار عليـه أخـي فانتـشى وجهـه حبـورا وخـرج يتقافـز بسـعادة. فهمـت بعـد أن رأيـت موقـف تلـك الحيـة أن المديـر مغتبـط لمـا حـدث لأخـي فهـو الفرصـة الذهبيـة التـي ستسـمح لـه بطـرد أخـي وشـطبه مـن الوظيفـة. تلـك اللئيمـة فهمـت الأمـر بسرعـة فوثبـت تـصرخ صراخـا مفتعـلا وقامـت تحـزم ملابسـها وغـادرت البيـت هاربـة مـن زوجهـا الـذي هـو في أمـس الحاجـة إليهـا كـما هربـت منـذ عامـين مـن رعايـة طفلتهـا البئيسـة. مـر مـا تبقـى مـن اليـوم وقـد أطبـق علينـا صمـت كصمـت القبـور عـصرا. كنـا ثلاثتنـا جالسـين في الصالـة غـير أن كل منـا كان غارقـا في أفـكاره الخاصـة.

أما الصغيرة أمل فقد هدأت أخيرا ونامت، وكذلك أخي نام فتوقف أنينه الشبيه بالعواء الذي يقطع القلوب. لم نتحدث طيلة النهار عما أصاب أخي. توافقنا بشكل غريب على ابتلاع الصدمة وهضمها على مهل بصمت بعيدا عن مشاركة أي منا لأفكاره مع الآخرين.

<u>الثلاثاء، ٣٠ غشت:</u> جاء الصباح التالي واستيقظت مجددا على صرخة. قبل أن أنام تمنيت أن تكون أحداث النهار حلما طويلا سأستيقظ منه صباحا. غير أن الصرخة التي حملت صوت ماما قتلت ذلك الأمل في قلبي فقفزت من فراشي وجريت لأرى ما حدث هذه المرة. يا الله على هذه الرائحة. رائحة الموتى. كيف يتحملها أخي المسكين؟ رأيت خلال دخولي السريع فراغ طبق اللحم الذي تركته له مساءً. سعدت لذلك. رأيت ما سبب صراخ ماما ولم يكن لدي أي تفسير لسر تلك الدماء على ذراعيه. أخرجت

ماما وخلال ذلك حملت معي كتابا كان ملقى على الأرض بجانب الفراش جذبني عنوانه الغريب «التحول». سأعود لاحقا للغرفة بطعام الفطور لأخي. تركت الباب مفتوحا وأبعدت الستارة عن نافذة الغرفة ورششت الغرفة بمعطر للجو غير أن تلك الرائحة بقيت مقيمة ملتصقة بالغرفة لا تبرحها. لم أستطع البقاء طويلا فقلبي يكاد يقفز من حلقي رفقة محتويات معدتي. خلال ذلك كان الوالد قد عاد لحصة نومه الصباحية وخرجت ماما على غير عادتها. أطعمت الصغيرة أمل ولاعبتها قليلا ثم انشغلت بالمهام المنزلية وبعد ذلك بدأت بإخراج وترتيب مستلزمات الدراسة التي سنعود لها بعد أسبوع. لم يخرج جواد من غرفته أبدا منذ الأمس ولا حتى إلى الحمام. تساءلت أين يلبي نداء الطبيعة وتقلصت أمعائي وشعرت بالاشمئزاز حين فكرت أنه يقضي حاجته في الغرفة أو على الفراش وبأنه سيكون عليّ

أنا أن أنظف ذلك. أعرف أن ماما لن تتحمل ذلك بكل الأمراض التي تسكن جسدها. سأفعل. سيكون ذلك قليلا لأجل أخي الذي فعل الكثير لأجلي. لولا أنه تخلى عن أحلامه وتفرغ لرعاية أسرتنا بعد أن توقف الوالد عن ذلك لما استطعت متابعة دراستي. كان الوالد يلمح أكثر من مرة إلى أنه لا حاجة للمرأة إلى الدراسة. يوما ما سيأتي رجل ليأخذها. الأفضل أن تخرج الفتاة للعمل. أي عمل. وتأتي براتبها نهاية كل شهر وتضعه على حجر والدها وتطلب بركاته. مهما أفعل لن أوفي جوادا حقه. إنه الجواد الكريم حقا والجواد لا يوفى أجره أبدا.

الأربعاء، ٣١ غشت: لم أنم الليلة الماضية ولم أتوقف عن البكاء. ما كنت أخشاه قد حدث. على مائدة العشاء الذي لم نتناول منه سوى لقيمات قال الوالد فجأة موجها كلامه لي. قال إني قد درست ما يكفي وتعلمت كل ما أحتاج إليه. يكفي أنني حصلت على

شـهادة الباكالوريـا ودرسـت عامـا في الجامعـة. لا حاجـة لشـهادة الإجـازة. قـال إنـه قـام بواجبـه منـذ زمـن والآن جـاء الـدور علـيّ لرعايـة الأسرة بعـد أن توقـف أخـي عـن ذلـك. قـال الوالـد ورمـى ظرفـا إلى المائـدة إن أخـي قـد شـطب عليـه نهائيـا مـن سـجل الوظيفـة العموميـة. لا راتـب لـه بعـد الآن ولا اسـتفادة مـن صنـدوق التقاعـد ولا أي تعويـض كيفـما كان شـكله. مسـتحيل. بهـذه السرعـة؟ يـا اللـه عـلى البيروقراطيـة المغربيـة حـين تريـد أن تعمـل بسرعـة. قـال الوالـد إني يجـب أن أخـرج للعمـل. قـال إنـه التقـى بصديـق قديـم كان يعمـل معـه سـاقيا في الحانـة قـام مؤخـرا بافتتـاح مقهـى فاخـر مطـل عـلى شـاطئ مالاباطـا. غمغـم بخفـوت لم يخـف غيرتـه أنـه مـا كان لـه ليمتلـك مـالا لذلـك المـشروع لـولا أنـه انتقـل للاتجـار في المخـدرات. رفـع رأسـه إليّ وقـال إن صديقـه موافـق عـلى تشـغيلي نادلـة في مقهـاه ويمكننـي البـدء مـن الغـد. لطمـت مامـا وجههـا وضربـت عـلى

صدرها. ابتلعت ريقي بصعوبة وقمت شبه مخدرة متوجهة نحو غرفتي والدموع تغم رؤيتي. قبل أن أصل جاء زعيق الوالد وأمسكني من شعري وجرني إليه صارخا بأن أعود للجلوس ومواصلة الأكل إلى أن يأذن لي بالقيام. اليوم استيقظت محمرة العينين. عليّ الاستحمام سريعا والذهاب إلى المقهى لأبدأ عملي.

<u>الأربعاء، ٣١ غشت (مساء):</u> عدت بعد أن انتهت حصة عملي قرب العصر. آلمني الحذاء جدا وقد أشار لي مشغلي بضرورة انتعال حذاء رياضي خفيف لمثل هذه الأعمال التي تتطلب الوقوف لساعات. كان مشغلي لطيفا غير أن اليوم الأول كان متعبا جدا رغم أني لم أكن أعمل فعليا بل فقط أتعلم أسلوب العمل. أطللت على أخي بمجرد ما دخلت فوجدته جالسا القرفصاء في ركن الغرفة مغمض العينين كأنه يتأمل. فتح عينيه حين دخلت ورسم على شفتيه ابتسامة بالكاد ترى بين شاربه ولحيته المشعثين وشفته

المتدليـة. بادلتـه الابتسـامة ووضعـت لـه عـلى الفـراش شـطيرة لحـم مفـروم أحضرتهـا معـي مـن المقهـى. ذهبـت إلى الاسـتحمام وخرجـت إلى حضـن والـدتي حيـث بكينـا معـا بصمـت قبـل أن يـأتي بـكاء أمـل فنهضـت لأغـير لهـا وأجهـز لهـا الحليـب.

الخميـس، ١ سـبتمبر: قبـل أن أنـام أمـس قـرأت قصـة التحـول التـي أخذتهـا مـن غرفـة أخـي. يـا إلهـي كـم هـي متشـابهة مـع مـا يحـدث الآن. يـكاد التشـابه يكـون حرفيـا وكـم أخـاف أن تكـون النهايـةُ النهايـةَ ذاتهـا. تحـكي القصـة عـن جريجـور سامسـا. منـدوب مبيعـات متجـول. شـاب عـازب ضحـى بنفسـه وبطموحاتـه طيلـة سـنوات ليعيـل عائلتـه المكونـة مـن أب وأم وأخـت صغـرى بعـد أن خـسر الأب تجارتـه وغـرق في الديـون. اضطـر الشـاب للعمـل في وظيفـة لا تعجبـه لينقـذ عائلتـه مـن الفقـر. لكنـه ذات صبـاح اسـتيقظ فوجـد نفسـه قـد تحـول إلى مسـخ. إلى حـشرة ضخمـة. يومـذاك تغـير كل شيء بالنسـبة

للعائلـة. في البدايـة ولأن جريجـور تأخـر عـن العمـل ذلـك الصبـاح جـاء الموفـد مـن المديـر مسـتفسرا عـن أسـباب التأخـير فاكتشـف التحـول وكانـت نهايـة الوظيفـة ومصـدر الدخـل الوحيـد للعائلـة. وجـد الأبـوان صعوبـة في هضـم وتقبـل التحـول. تعامـل الأب كان صارمـا جـدا ودفعـه القـاسي لابنـه في الصبـاح الأول للدخـول إلى غرفتـه تسـبب في أذيتـه وكـسر أحـد أرجلـه المتعـددة. وحدهـا الأخـت اهتمـت بجريجـور وصـارت تقـوم بأمـوره تـأتي لـه ببقايـا الطعـام المتنوعـة لينتقـي منهـا مـا يناسـبه وتنظـف غرفتـه. وبسـبب هـروب الخادمـة والطباخـة كان عـلى الأخـت أن تقـوم بكامـل مهـام البيـت بجانـب الأم. ثـم اضطـرت الأم للعمـل في حياكـة الملابـس مـن البيـت وخـرج الأب للعمـل. رأت الأخـت بعـد أيـام أن الحـشرة التـي صارهـا أخوهـا تحـب أن تـدور في الغرفـة وتتسـلق الجـدران. فكـرت أنـه مـن الأفضـل أن تفـرغ الغرفـة مـن قطـع الأثـاث الكبـيرة التـي مـا عـاد يحتـاج

إليها أخوها لتمنحه فراغا أكبر لحركته. سعد الأخ بداية غير أنه من واقع بقايا الإنسانية التي ما زالت تجري في عروقه تسلق الجدار وتعلق باللوحة المفضلة لديه حتى لا تؤخذ منه. حين عادت أخته ووالدته بعد أن أخرجتا صندوق ملابسه رأته والدته ملتصقا على الجدار فأغمي عليها خوفا ورعبا. خرجت أخته لإحضار ما تنعش به أمها فتبعها الأخ الحشرة. في أثناء ذلك عاد الأب من عمله ورأى زوجته مغمى عليها ورأى الحشرة أسقطت إناء ماء فبدأ يرمي ابنه بالتفاح حتى يعيده إلى غرفته. الحجم الضخم للحشرة لم يسمح لها بالدوران بسهولة والعودة للغرفة لذلك تأذت كثيرا من التفاح الملقى عليها بقسوة. إحدى التفاحات اخترقت ظهره وآلمته كثيرا. تمكن جريجور أخيرا من العودة إلى غرفته حيث فقد الوعي من الألم. بقيت التفاحة في ظهره تتعفن وتمرضه أكثر فأكثر خاصة أنه بدأ يمتنع عن الطعام فصار يذبل

أكثر وأكثر. الأخت خرجت أيضا للعمل وتوقفت عن الاعتناء بأخيها الذي صارت حركته مقيدة جدا. لاحقا سيأتي ثلاثة رجال لتأجير إحدى غرف الشقة وستعمل الأسرة على خدمتهم. ذات يوم بعد العشاء أخذت الأخت الكمان وانطلقت تعزف للمؤجرين. لطالما كان جريجور مغرما بعزف أخته وقد كان يوفر منذ فترة مالا ليغطي تكاليف تسجيلها في المعهد الموسيقي. مسحورا بعزفها الذي اشتاق له خرج من غرفته ناسيا الرجال الغرباء الثلاثة الذين ما إن رأوه حتى أرغوا وأزبدوا وهددوا رب الأسرة بالمقاضاة وعدم أداء الأجرة بسبب إيوائه لحشرة في البيت. غادر المؤجرون وفي لحظة الغضب تلك قالت الأخت إن الوقت حان للتخلص من الحشرة. قالت إن الحشرة ليست أخاها الطيب أبدا. الأخ اختفى إلى الأبد. لو كان أخوها ما يزال داخل هذه الحشرة لخجل من نفسه وغادر منذ زمن ليمنع عنهم المعاناة. في تلك الليلة فكر جريجور

أن الحل فعلا هو أن يختفي. في ذلك الفجر مات جريجور. أصبحت العائلة على الخبر الذي أسعدها. قرر ثلاثتهم الحصول على يوم إجازة والذهاب إلى الضواحي للاستمتاع بالهواء النقي. آنذاك فكر الأبوان كيف أن ابنتهما نضجت وصارت زوجة بالغة الجمال. أخرجني من خواطري صوت التنبيه من الهاتف فقرأت رسالة أيمن يسألني عن سر الغياب وإذا كان بإمكاننا اللقاء. تأملت في رسالته عميقا وفكرت في قصة كافكا الغريبة التي تكاد تتحقق بحذافيرها على أسرتي. كتبت رسالة إلى أيمن. أخبرته بأنه لا يمكنني الخروج اليوم إذ سيجيئ إلينا ضيوف. سألني عن الضيوف فقلت إنهم فرع بعيد من العائلة سيأتون لخطبتي. جاء رده عبارة عن صورة إيموجي لوجه يلطم أتبعها بوجه باك. سألته ما به فذكرني بحبنا. أخبرته أن الأمر ليس بيدي. أبي سيوافق حتما على عائلته. أخبرته أنني يمكنني المماطلة بضعة أيام إذا

كان سـيأتي لخطبتـي قبـل نهايـة الأسـبوع. للأسـف لم أتوصـل منـه بـأي رد. هـذه الحيلـة لم تنفـع معـه.

<u>الجمعـة، ٢ سـبتمبر:</u> عـلى مائـدة الإفطـار اقترحـت عـلى الوالـد فكـرة لتحقيـق دخـل إضـافي لـلأسرة لعـلي أقنعـه لاحقـا بالسـماح لي بالعـودة للدراسـة. أخبرتـه عـن مواقـع الإنترنـت الوسـيطة التـي تسـمح بتأجـير الغـرف. لدينـا غرفـة نـوم ثانيـة لا نسـتخدمها مخصصـة للضيـوف. بينـت لـه مزايـا النظـام وسـهولته. أعجبتـه الفكـرة وتحمـس لهـا غـير أنـه اشـترط أن يكـون التأجـير للسـياح الأجانـب فقـط وليـس للمغاربـة كـما اشـترط أن يتـم التسـجيل برقـم هاتفـه هـو ليتواصـل المؤجـرون معـه مبـاشرة عـبر الهاتـف وليـس بالبريـد الإلكـتروني. تمـت الخطـوة الأولى بنجـاح.

[8. ألـف ليلة وليلة]

كان يـا مـا كان، شـخص طيـب اسـمه جـواد. اسـتيقظ ذات صبـاح ليجـد نفسـه انمسـخ وحشـا منبـوذا مدنسـا كأن الشـياطين تسـكنه. كان يـا مـا كان شـخص طيـب اسـمه جـواد تخـلى عـن أحلامـه وطموحاتـه كلهـا ليعتنـي بأسرتـه، يعـرف بالضبـط موعـد وفاتـه ويعـرف أنـه سـيموت لأجـل أسرتـه.

استيقظ جـواد، في الصبـاح التـالي، عـلى صرخـة والدتـه وصـوت سـقوط المبخـرة. فتـح عينيـه ورأى الرعـب المرسـوم عـلى تجاعيـد وجههـا ورأى بحـر الأحـزان في مقلتيهـا. جـاءت أختـه تخـرج أمهـما وانتبـه بعـد ذلـك إلى الدمـاء التـي تغطـي يديـه حتـى مرفقيـه. ارتعـب

واعتدل جالسا. مسح يديه بجنون بسرواله وبقدر ما اطمأن لزوال الدماء وبأنها ليست دماءه ارتعب أكثر متسائلا عن مصدر تلك الدماء.

هجم عليه صداع عنيف فضغط على رأسه بكلتا قبضتيه وأغمض عينيه. أحاط رأسه بذراعيه ورفع ساقيه المضمومتين إلى وجهه وسقط على جنبه. بذل كل جهده ليمنع صرخة الألم من الخروج. عض على شفته كاتما الصرخة وبدأ يهتز وينتفض على فراشه. مرت دقائق طويلة ثم همدت النوبة فجأة كما بدأت، وبقي مستلقيا على ظهره والعرق يغطي وجهه واللعاب يسيل من شدقيه. رأى بقع المرق على سرواله ولم يتذكر متى تناول الوجبة التي سقطت منها تلك القطرات. وجد أنه لا يتذكر شيئا إلا ما حدث صباح الأمس. كل ما بعد ذلك اختفى من ذاكرته.

رأى هند قادمة فاعتدل في الفراش وتغطى مجددا. دخلت وتركت الفطور. أبعدت ستارة النافذة المفتوحة

ليدخل هواء أكثر، ورشت الغرفة بمعطر للجو. أحس جواد بتسارع دقات قلبها وأحس بها تحبس أنفاسها ثم رآها تخرج لاهثة. لم يحاول التدخل ولا أن يقول لها أي شيء. حاول أن يتلفظ بكلمة الشكر حين وصلت إلى الباب لكن الكلمة تأخرت في الخروج إلى أن ابتعدت أخته وأغلقت الباب.

ستمر على جواد باقي الأيام بالوتيرة نفسها. يستيقظ صباحا فيجد نفسه لا يتذكر شيئا إلا ما يفعله خلال ساعات الصباح الأولى. أما ما يفعله بعد ذلك فيختفي من ذاكرته تماما. وكان غالبا ما يستيقظ متعبا مرهقا كأنه قضى الليلة وهو يقوم بأعمال شاقة. أحيانا كان يستيقظ بملابس كاملة لا يتذكر أنه لبسها وأحيانا يجد على يديه أو وجهه أو قدميه علامات وآثار لا يمكن أن يحصل عليها إلا لو كان قد غادر البيت، وهو واثق تماما من أنه لم يكن يغادر حتى غرفة نومه ذاتها.

مع ذلك كان ينتابه أحيانا شعور بالغبطة والراحة. رغم كل الغموض الذي يغلفه صار يحس بحرية أكبر. التحرر من مسؤولية العائلة جعله يحس أحيانا بالخفة، بأنه فراشة تحلق في مروج الربيع وتتنقل من زهرة عطرة إلى أخرى. إلا إنه كان يشعر بالندم ويلقي تلك الأفكار وراءه حين يرى حزن والدته وتعبها متنقلة من فقيه دجال إلى آخر، وحين يرى أخته تعود من عملها بعد أن منعها والدهما من متابعة دراستها. كان يرى من غرفته ما تتعرض له أخته من مضايقات في المقهى. رأى أحد الزبائن يحملق في ثدييها الفتيين المطلين من قميص العمل الرسمي الذي أريد له أن يكشف التكور تحته، ورأى ذلك الزبون قبيل مغادرته يكتب رقم هاتفه على ورقة مالية زرقاء ويدسها في الفج البارز من صدر أخته. أقسم أن يقطع تلك الأصابع التي انسلت إلى صدر أخته وسكنت هناك وقد حلم تلك الليلة أنه فعل.

ورأى زبونا آخر أسقط عمدا فاتورته وحين انحنت هند لالتقاطها لعق شفتيه وهو يحدق بتلذذ إلى القمرين المطلين من صدر النادلة. أقسم أن يفقأ تلك العينين اللتين دنستا أخته وقد حلم أنه فعل. ورأى زبونا يصفع مؤخرة النادلة ويضحك لها كأنه يمازحها فأقسم لأن يقطعن تلك اليد وهو مدرك يقينا أنه حتما قاطعها. آلمه كثيرا ما تتعرض له أخته، وإن كان ثمة خاطر مزعج يقض مضجعه أحيانا بأنها تتعمد، لسبب ما، وضع نفسها في تلك المواقف. ينفض عنه ذلك الخاطر ويتذكر أخته الغزالة الرشيقة اللطيفة والفراشة الخفيفة والطالبة المجتهدة والكاتبة الواعدة الموهوبة. تذكر قصتها الأخيرة التي أعطته نسخة منها ليراجعها ويعطيها رأيه فيها. كان هذا قبل اللعنة التي أصابته ونسي أمرها تماما. نهض بحماس إلى درج المكتب وأخرج القصة. تأمل في العنوان برهة «حرب الرمال» ثم بدأ القراءة:

سمعنا الرصاصة ورأيننا نسقط.

كنا قد بتنا في العراء ملتحفين بالنجوم تحت سماء الصحراء القارصة وكنا نسابق الزمن في بناء الجدار الرملي ليل نهار وكنا نراقبنا من الجهة الأخرى نبني الجدار الرملي ليل نهار.

جئنا من جامعة وهران وجئنا من جامعة محمد الخامس وجئنا مزهوين بشارة الملازم من المعهد الملكي وجئنا مزهوين بشارة الملازم من كلية الأركان وتطوعنا من شوارع عنابة والرباط وسطيف وتلمسان وفاس ومراكش وأخذنا عنوة من بيوتنا في طنجة وتطوان وقسنطينة وباتنة وأكادير.

سمعنا صوت الرصاصة ورأيننا نسقط. نسقط دفعة واحدة. نسقط، كما قال ذلك الشاعر العربي؛ كجلمود صخر حطه السيل من عل.

كان يومنا الأول هنا وما زال جلدنا طريا تخدشه

أشــواك الشـمس وكانــت سـنتنا الخامسـة هنـا وقـد لوحــت الشـمس وجوهنـا وشـققت الصحـراء كفوفنـا وحفـرت رمالهـا أخاديـد في أقدامنـا.

أصبنـا بالحمـى وسـهرنا الليـالي نتقيـأ. تقيأنـا حـين انفجـر اللغـم وأطـار قدمنـا وتقيأنـا حـين أصابـت رصاصتنـا قلبنـا وتقيأنـا حـين دفنـا جسـدنا الـذي فارقتـه الـروح وتقيأنـا حـين تناولنـا طعامنـا المنتهـي الصلاحيـة وتقيأنـا حـين لدغتنـا العقـارب والأفاعـي.

أصبنـا بالحمـى وسـهرنا الليـالي نرتجـف. ارتجفنـا حـين لامسـت أصابعنـا بـرودة البنـادق أول مـرة وارتجفنـا حـين لامسـناها في المـرة العـاشرة ولم نشـعر ببرودتهـا.

تحدثنـا عـن حبيباتنـا المنتظـرات في مدرجـات الكليـة وزوجاتنـا الحوامـل المنتظـرات في بيـوت آبائنـا وأمهاتنـا السـاهرات المناجيـات أسـحار الليـل خالـق الليـل والنهـار أن يعيدنـا إليهـن قطعـة واحـدة

سليمة. تحدثنا عن كامو والبياتي والسياب ونازك الملائكة وبنت الشاطئ والعقاد وطه حسين. تحدثنا عن أنواع السيارات وقوة المحركات. تحدثنا عن الحشيش وكرة القدم والدومينو والورق في ليالي المقاهي الساهرة.

كنا واقفين نضحك وكنا واقفين نبكي وكنا واقفين واجمين وكنا واقفين نتأمل وكنا واقفين نصلي. كنا واقفين حين أطلقنا الرصاصة وسقطنا. في لحظة كنا واقفين وفي لحظة هوينا أرضا. سحبنا زرا واحدا وانهار الجسد دفعة واحدة. كان ثم لم يكن.

أمسكنا حفنة من الرمال وتركناها تتسرب من بين أصابعنا كالسراب وأبصارنا شاخصة نحو الشفق الأحمر للشمس الغارقة في دمائها.

قلنا إننا سنعود لإكمال دراستنا حين تنتهي الحرب وقلنا إننا سنعود إلى حقولنا وإلى صدور أمهاتنا وحواري أزقتنا وقلنا إننا سنكمل دراستنا في

أرقى الكليات العسكرية في بريطانيا وأمريكا وقلنا إننا سنعود لإنشاء مشروعنا التجاري وقلنا إننا سنعود لنكتب كتابا عن بشاعة الحرب وقصائد عن وحشية الحرب وقصة قصيرة عن عبثية الحرب تبدأ حين سمعنا الرصاصة ورأيننا نسقط وتنتهي بنا شاردين أمام الشمس الغاربة وحفنة الرمال تنزلق من أصابعنا.

أكمل قراءة قصتها بسرعة وأعادها للمرة الثانية فورا. في العادة هو لا يميل كثيرا للقصص المجدفة في التجريب والمغرقة في الرمزية. لكن هنا، رأى أن، طبيعة الموضوع فرضت هذا الأسلوب التعبيري. فوضى الحرب وكيف أنه لا غالب ولا مغلوب في الحروب. لا ملائكة ولا شياطين. الكل يخسر، إلا قلة يتاجرون بمآسي الآخرين ويكنزون الثروات ويترقون في المناصب.

وضع القصة جانبا وأغمض عينيه متحسرا. كان يأتي لأخته بكل ما تريد من كتب، وقد بدأ منذ

أشـهر يدخـر مـن مصروفـه الشـخصي ليجمـع لهـا المبلـغ المطلـوب لتسـجيلها في ورشـة إبداعيـة لكتابـة الروايـة. كانـت تلـك الورشـة سـتكون هديتـه لهـا في عيـد ميلادهـا القـادم. لكـن جـرت الريـاح بمـا لا تشـته السـفن.

كان يـا مـا كان، شـاب طيـب اسـمه جـواد صـار قزمـا مشـعرا كقـرد، وصـار حبيـس غرفتـه التـي يعتقـد أنـه لا يغادرهـا منـذ اللعنـة التـي أصابتـه.

أغلـب الصباحـات التـي سـيتذكرها سـتكون متشـابهة: يفتـح عينيـه ويتحقـق أن أطرافـه مـا زالـت كـما هـي ولا شيء تغـير. سـتمر الأشـهر الثلاثـة كاملـة دون أن يتغـير فيه شيء ولا حتـى سـتطول شـعرة واحـدة مـن شـعر جسـمه الغزيـر. يتنـاول مـن تحـت الفـراش إنـاء المـاء الزجاجـي الفـارغ، فيمـلأه كـما العـادة حتـى الحافـة ويتجـرع سـائله الأصفـر كـما العـادة. سـيفعل ذلـك طيلـة الأشـهر الثلاثـة مـرة واحـدة كل صبـاح. لـن يـشرب أي سـائل آخـر ومـع ذلـك سـيمتلئ الإنـاء دائمـا إلى شـفته. بعـد ذلـك ينهـض

إلى الباب ويجلس على الأرض يأكل الفطور الذي تضعه له أخته. كانت تضع له في البداية الحليب الذي اعتاد شربه لكنه ما عاد يتحمله حاليا. يأكل البيض والجبن وشرائح اللحم المدخن. لاحقا بدأت أخته تأتيه أيضا ببقايا عشائهم من عظام وقطع اللحم الدسمة. لكنها مع توالي أيام عملها وزيادة تعبها من المسؤولية الملقاة على كاهلها ستتباطأ في خدمة أخيها. ستستيقظ في بعض الصباحات متأخرة وتخرج جريا إلى عملها دون أن تجهز له ولا لها فطورا. هي صارت تفضل الفطور المجاني في المقهى. أحيانا تأتي متعبة جدا فتستلقي على فراشها من العصر وحتى الصباح التالي. لم يكن يشتكي. كان يسمع أحيانا صوت أمعائه تشتكي وببعض التقلصات في معدته، لكن إحساسه بالجوع كان يختفي حين يستيقظ في الصباح التالي متخما بالشبع. ثم بعد الفطور يفتح خزانة الملابس ويقرفص لدقائق. من الأمور الغريبة التي توقفت

عندها أخته متسائلة من دون أن تحر جوابا هو أن الرائحة النتنة التي تعبق بها الغرفة وتسكن فيها بإصرار لا تغادر أبدا باب الغرفة ولا نافذتها، ولا يمكن شم تلك الرائحة نهائيا خارج الغرفة حتى لو بقي الباب مفتوحا.

إضافة إلى التعب الصباحي كان يشعر دائما بالخواء. كأن جزءًا مهما منه اختفى. ذاب وانصهر وتبخر. بعد الفطور وتلبية نداء الطبيعة يعود جواد إلى الفراش ويستلقي على ظهره. أحيانا يدمدم بكلمات مبهمة يصل أزيزها إلى صالة الشقة دون أن يفهم أحد منها كلمة، وأحيانا يشغل نفسه بالرسم على السقف بدفقات متنوعة الألوان من بصاقه يقذفها بصوت مسموع يزعج والده فينهض ويضرب الباب بقبضته ويصرخ مطالبا الشيطان أن يصمت. غالبا يتوقف جواد فورا، لكنه أحيانا يرسم ابتسامة هازئة على شفتيه ويكمل لعبته. أحيانا يتذكر هوايته الأثيرة

فينهض إلى مكتبه ويخرج لوحات الخط المزخرف ويراجع بحنين لوحات الخط التي شكل فيها أبيات شعر طالما وقع في غرامها وأمثال وحكم يحفظها منذ طفولته. يخرج أحيانا ورقة بيضاء عذراء ويمسك بالقلم. يتجمد أمام الورقة طويلا دون أن يجرؤ على إبعاد الجمود عن يده. تسقط الدمعة على الورقة فيلقي بكفه عليها ويشد على أصابعه حاملا معه الورقة مكورا إياها ممزقا لها راميا إياها إلى ما وراء ظهره، ثم يعود إلى الفراش ويمارس إحدى هواياته الجديدة، البصق أو الدمدمة بلغات غريبة أو ترديد أناشيد من زمن الطفولة يحورها بشكل بشع ليسقط عنها كل تقريريتها الأخلاقية.

لاحقا حين بدأ أبوه يؤجر غرفة النوم الاحتياطية، الملاصقة لغرفته، للأجانب صار يمتع نفسه بهواية جديدة هي تركيز بصره على الجدار ليرى ما يفعل المؤجر، وكانت متعته أكبر حين يكون المؤجر زوجا

وزوجـة، أو يفـترض أنهـما زوج وزوجـة فـالأب لم يكـن يشـغل بالـه بالتحقـق مـن ذلـك. إنهـم نصـارى كـما يقـول عـن الأجانـب كلهـم، إنهـم حيوانـات كـما يضيـف، ولذلـك لا يهتـم إن كانـت المـرأة مـع الرجـل زوجتـه أم عشـيقته أم عاهرتـه أو حتـى أختـه.

أمـا خـلال الأسـابيع التـي كانـت فيهـا هنـد تعمـل في الحصـة المسـائية، فقـد كانـت تسـتيقظ بعـض الصباحـات نشـطة مشـعة فتطلـق حنجرتهـا لأداء أغانيهـا المفضلـة وهـي تسـاعد أمهـا في أعـمال البيـت. صـار ذلـك نـادرا بعـد أن كاد التجهـم يميـت وجههـا النـضر للأبـد. كان جواد يعتـدل آنـذاك جالسـا عـلى فراشـه، يطرقـع بأصابعـه لتنغلـق النافـذة عـن صخـب الشـارع، يغمـض عينيـه، ويرهـف سـمعه لصـوت أختـه السـحري. كان يشـعر آنـذاك، وهـو يطـير بـين السـحاب، بأنـه يسـتعيد ذلـك الجـزء الـذي اختفـى منـه وبـأن الفـراغ داخلـه يتقلـص. يشـعر أيضـا بالشـعور نفسـه حـين تجلـس والدتـه، أحيانـا،

بعـد الفطـور عـلى أريكتهـا المفضلـة، تطـوي سـاقيها تحتهـا، تشـبك أصابـع يديهـا وتبـدأ بتـلاوة قصـار السـور، التـي حفّظهـا لهـا، بطريقـة متعـثرة تـسرق منـه ابتسـامته وتدغـدع ذكرياتـه باعثـة الحنـين في داخلـه، فيغطـي الحنـين عـلى ذلـك الفـراغ الـذي صـار يسـكنه وتسـيل مـن عينيـه قطرتـان مـن الدمـع ينفضهـما عـن وجنتيـه سريعـا ثـم يعـود إلى اسـتلقائه ولعبـة البصـاق ويضـع يديـه عـلى أذنيـه لمنـع صـوت التـلاوة.

[9. ذاكرة الجسد]

كان عمره عشر سنوات حين هرب محمد الإدريسي من البيت ومن كامل القرية. تيتم وعمره بالكاد أربع سنوات. يكاد لا يتذكر شيئا عن والده الذي قتل خلال إحدى مناوشات الجيش الذي يطوق مدينة الحسيمة والقرى المتاخمة لها، منذ انتفاضة الريف التي قمعها قبل ذلك بتسع سنوات. مات الأب دون أن يعيش مع ابنه طفولته، ولم يمض على الأم سوى بضعة أشهر حتى زفت إلى رجل آخر، أرمل بدوره، جاء معه بولدين وهي ذهبت محملة بثلاثة صبيان. سيسمع الصغير محمد لاحقا الإشاعة التي تلاحق زوج أمه عن أنه ضرب زوجته الأولى في نوبة

غضب حتى ماتت بين ذراعيه. الكبار يقولون إنها مجرد إشاعة لكنه يعرف جيدا أنها الحقيقة ولا شيء إلا الحقيقة. لقد اكتوى بنفسه من قسوة زوج الأم طيلة ست سنوات حتى لم يعد قادرا على التحمل.

كان عمره عشر سنوات حين استيقظ محمد الإدريسي ليلا على صوت بكاء والدته. أدرك أن زوجها هو السبب مجددا. بقي مستيقظا حتى اقترب الفجر. رأى أمه تنهض وتمشي بعرج خفيف لتحلب بقرتهم الوحيدة وتجهز الفطور. قام دون تردد نحو المطبخ. أخذ أكبر سكين لديهم، سكين ذبح الخراف، وتوجه نحو غرفة نوم أمه وزوجها. كان الزوج المكرش يستلقي على ظهره ويشخر. توقف الصبي قليلا عند الباب. باغته التردد وكاد يعود القهقرى إلا إنه ثبت وتقدم بخطوات هادئة حتى وقف على رأس زوج أمه. أمسك السكين بيديه الصغيرتين وهوى بكل ثقله على الحنجرة. شهق زوج أمه وتناثرت الدماء على وجه

الصبـي. مـد الـزوج يـسراه ونـزع السـكين وفي الوقـت نفسـه مـد يمنـاه إلى عنـق محمـد. لم تمنعـه حشرجـة الموت مـن الضغـط بقـوة بيمنـاه عـلى حنجـرة الصبـي. بـدأ محمـد يختنـق وهـو يحـاول عبثـا خربشـة الـذراع القويـة بأصابعـه الفتيـة. جـاءت الأم ورأت وليدهـا البكـر يختنـق بـين أصابـع زوجهـا القـاسي. لم تفكـر طويـلا. رفعـت قدمهـا اليمنـى وهـوت بهـا، بعـذاب السـنوات السـت أجمعهـا التـي قضتهـا معـه، مبـاشرة إلى معدتـه. شـهق الـزوج شـهقة صامتـة وتدفقـت الدمـاء بغـزارة مـن ثقـب عنقـه وارتخـت قبضتـه عـن عنـق محمـد.

كان عمـره عـشر سـنوات حـين هـرب محمـد الإدريـسي مـن البيـت ومـن كامـل القريـة. لم يجـد الصغـير محمـد، المتعـثر بالكوابيـس المفزعـة السـاكنة داخلـه، أي صعوبـة في الوصـول إلى مدينـة تطـوان. لم يعـترض طريقـه أحـد لكنـه قـضى أسـبوعين في رحلـة شـاقة عـلى قدميـه الحافيتـين. لم يعـانِ نقصـا في الطعـام الـذي كان يحصـل عليـه بسـهولة

من سكان القرى المتناثرة على الطريق ولا صعوبة في النوم، إلا إنه حين أطل على تطوان كان خائر القوى ممزق الملابس متشقق القدمين دامي اليدين متجهم الوجه أسوده. كان متعبا لدرجة أنه سقط عند مدخل المدينة وغاب في سبات عميق أفاق منه على أصوات إسبانية في بيت، سيعرف عنه لاحقا، أنه بيت لرعاية الأطفال المتخلى عنهم تابع لكنيسة سيدتنا المنتصرة التي بدأت نشاطها رسميا بعيد أيام من انتصار إسبانيا وحلفائها على جيش الخطابي، حين تحالفت معها فرنسا بأقوى فيالقها الخارجية، والقبائل الأخرى التي كانت تنازع الخطابي على السلطة، وفوق ذلك قنابل غاز الخردل التي ما زالت إسبانيا تنكر حتى اليوم استخدامها على سكان الحسيمة الذين يستشري فيهم السرطان كعلامة مميزة لتلك الأسلحة الكيماوية المحرمة.

سيمضي محمد الإدريسي عامين في تلك الكنيسة.

سيتعلم الإسبانية كتابة وقراءة، وسيحفظ بضع قصص من الإنجيل. بعد أيام قليلة سيتوقف الجميع عن مناداته باسم محمد وسيكتفون بلقبه الإدريسي، الذي لم يكونوا على ما يبدو يعلمون انتسابه للدوحة الشريفة وإلا لغيروه له. حاولوا اختيار عدة أسماء شخصية له، لكنه كان يرفض دائما الاستجابة لها. كان مشاكسا متمردا طيلة تلك السنتين. لم يكن يصلي صلاة المسلمين بطبيعة الحال، وكذلك لم يقترب يوما من قاعة الصلاة في الكنيسة. كان يكتفي بقصص الإنجيل في قاعة الدرس، وكان يختفي من الكنيسة صباح كل أحد. كان تمرده يزعج الراهبات المسؤولات عن رعاية الأطفال. لطالما فكرن بالتخلص منه ولطالما قلن إنه لا أمل منه.

ذات صباح من صباحات الأحد التي يهرب فيها خارج الكنيسة، ضبطه الكاهن عند الباب في طريق عودته، فأخذ أذنه بإصبعيه وشدّها بقوة حتى

اضطر محمد للوقوف على أصابع قدميه. صرخ فيه الكاهن يعيره بالكافر النجس والمسلم القذر. آنذاك مر بجانب الزقاق فقيه مسجد الحي وسمع ما سمع فاندفع وجذب محمدا إليه ووجه إصبعا مهددا إلى الكاهن. قال إنه سيأخذ الصبي معه فرفع الكاهن كتفيه بلامبالاة وغمغم بأن مصير هذه النجاسة أن تعيش مع النجاسة ولا حاجة لهم به.

ذهب محمد مع الفقيه وسيبقى في رعايته بضع سنوات. سيرعى كل منهما الآخر إلى أن يتزوج الفقيه. سيحفظ الصغير أجزاء من القرآن، بل كاد أن يكمل حفظه كاملا، سينسى أغلبها مع مرور السنوات. تعلم الكتابة والقراءة بالعربية، وإن بقيت ذاكرته تحتفظ بالإسبانية التي ستطوعها لاحقا سنوات تسكعه في أسواق تطوان وطنجة.

قدم الفقيه من إحدى قبائل جبالة في طنجة واستقر شابا في تطوان. كانت العداوة مقيمة بين

قبائل جبالة في الشمال الغربي للمغرب وقبائل ريافة في الشمال الشرقي التي ينتمي إليها الصغير محمد. لم يكن محمد يعلم ذلك ولم يكن الفقيه يهتم.

مرت سنوات ثلاث صار فيها الفقيه يعتبر الصغير، الذي سيبقى صغيرا رغم أن زغب الشارب بدأ يتلون بالسواد، أخاه الذي لم يرزق به، ولم يكن المسكين يعلم أي كابوس يخبئ له القدر.

استقر الفقيه الشاب في تطوان إماما لمسجد الحي ومدرسا لفتيان الحي وفتياته يحفظهم القرآن ويعلمهم قليلا من النحو وبعض الشعر. كان مثالا للأخلاق في الحي وكان محبوبا من الجميع. لذلك لم يتردد الحاج مسعود، أحد أعيان المدينة والمالك لمتجر التوابل الأكبر في المدينة، أن يبقى في المسجد بعد صلاة العشاء حتى غادر الجميع، فاقترب من الفقيه، صافحه وتكلم متلعثما ورأسه منحن خجلا واحتراما، خاطبا ابنته البكر للفقيه. عقدت المفاجأة لسان

الفقيه ولم يدر ما يقول. هو يعرف الحاج مسعودا ويعرف أخلاقه وسمع بجمال بناته وأخلاقهن، لكنه لم يكن يعرف أن خطابا كثرا جاؤوا للبنتين الصغريين والأب كان يرفض دائما تزويج الصغريات قبل زواج البنت الكبرى. تلعثم الفقيه وقال إنه لم يفكر في الزواج من قبل لأنه لا يجد نفسه مستعدا ماديا. عرض الحاج أن يتكفل بالمصاريف كلها. وافق الفقيه بعد تردد وقال إنه يشرفه أن يناسب الحاج مسعودا، لكنه أصر على أنه سيتزوج وفق ما تسمح به قدراته المادية ولن يقبل أي مساعدة من نسيبه ولا أي بذخ في الزفاف. تنفس الحاج الصعداء ووافق دون تردد.

[10. فوضى الحواس]

تعرفون طبعا ما سيحدث. سيقضي الزوجان أياما سعيدة، لكن لو أنها أياما سعيدة ليس إلا فلن تكون ثمة حاجة لحكايتها وحكاية قصة الفقيه. تعرفون إذن أن كارثة ستقع، ولعلكم تتذكرون قصة إغواء امرأة العزيز للنبي الشاب يوسف. نعم، القصة حدثت هنا بحذافيرها. حسنا، ليست بحذافيرها. حين جاء الفقيه لم تكن الأبواب مغلقة ولم يجد الشاب بقميص قد من دبر. بل وجد ظهر زوجته الجالسة على المراهق طري العود المستلقي يبكي استمتاعا.

لم يقتل الفقيه المسكين المراهق محمدا وإلا ما كان ليكبر الفتى ويتزوج ويلد بطل حكايتنا جوادا، وما

كنتم لتجلسوا أمامي الآن لسماع هذه الحكاية. أيضا لم يقتل زوجته. لم يصرخ حتى ولم يحتج ولم يقل شيئا. تجمد في وقفته، نعم. تدلت شفته السفلى، نعم. انسل اللعاب على ذقنه، نعم. دارت عيناه في المحجرين، نعم. ماذا بعد ذلك؟ استدار الفقيه بكل سذاجته القروية وخرج. لم يعد أبدا، ولم يعد له عقله إطلاقا. سوف يشاهد بعد أسابيع يهيم في الحواري صامتا فاغر الفاه شارد النظرات. سيأخذ بعض من تعرف عليه بيده ليعيدوه إلى البيت. سيذهب معهم مستسلما إلى أن يقترب من باب المنزل عندها سيصرخ وسيركل وسيهرب مجددا. سيتكرر الأمر غير ما مرة قبل أن يستسلم سكان الحي وقبل أن تبدأ الشكوك في دغدغة مؤخرات رؤوسهم.

خلال تلك الأيام تكررت استدعاءات زوجة الفقيه للمراهق الفتي، أحيانا أكثر من مرة في اليوم، إلى أن بالغت المرأة يوما في صرخات استمتاعها حتى وصل

صداها إلى السكان، وكانت الفضيحة التي لم يجد أمامها الحاج مسعود حلا غير خرطوشة من بندقية صيد الأرانب، فكانت ابنته الأرنب الأخير الذي صاده ولم يغادر بيته بعد ذلك أبدًا.

أما المراهق محمد الإدريسي فقد فتحت زوجة الفقيه، الذي أواه ورعاه، الباب على مصراعيه أمام نزواته ولم تغلقه. فبقيت نوافذ جسده مشرعة وثقبا أنفه متوثبين يتشمم بهما روائح العجائز الإسبانيات، وحين لم تعد تلك العجائز يلبين متطلباته المتنامية عرف طريقه إلى مواخير سبتة، ثم حاناتها حيث بدأ العمل متنقلا من حانة إلى أخرى ومن مقهى إلى آخر، متنقلا بين سبتة وتطوان وطنجة ذهابا وإيابا طيلة سبع سنوات من الحرية المطلقة، إلى أن جاءه سهم كيوبيد على حين غرة ووقع أسير حب شابة مليحة يحمل وجهها قسمات الجمال المغربي المختلط بالعبق الأندلسي. كان يعمل آنذاك نادلا في مقهى تابع لفندق

وسط تطوان، وكانت الشابة يتيمة الأب وافقت أمها فورا على عرض الإدريسي وتنهدت الصعداء ونامت لأول مرة منذ سنوات مطمئنة على ستر ابنتها.

ستلد له زوجته بكره جوادا، وخلال تلك الأشهر سيختفي الحب وسيعود لعادته القديمة وسيترك أنفه يتتبع العجائز حينا والفتيات حينا إلى أن وصل الخبر إلى زوجته فكانت المشادة التي نالت بسببها لطمة أفقدتها الوعي لساعات وحين أفاقت لم تجد الابن ولا الزوج.

سينزل محمد، ورضيعه، بضعة أشهر ضيفا في طنجة عند زوجة ديبلوماسي إسباني عاد إلى مدريد حين انتهت مهامه، ورفضت زوجته التي سقطت في هوى المدينة أن تلحق به. ستوفر له عشيقته الإسبانية كل ما يريد وسترعى ابنه الرضيع، غير أن صبرها على بكاء الرضيع ليلا سينفذ وستمهل محمدا بضعة أسابيع ليجد حلا وإلا فإنها سترميه من النافذة

ذات يـوم.

بعـد أيـام التقطـت عينـاه فاطمـة الغريـرة، فأرادهـا أمًّـا لابنـه. في الحقيقـة هـي أعجبتـه وشـعر بهـا تحـرك قلبـه ولم يـرد اسـتغلالها فقـط. وذلـك مـا كان، بـل أكـثر مـما توقـع، حتـى إنهـا أنسـته عشـيقته الإسـبانية وفتيـات البيـوت المخفيـة في أعـماق الحـواري. اسـتقرا في طنجـة وحصـل عـلى عمـل جيـد سـمح لـه بحيـاة مـن الرخـاء معقولـةً، وادخـر بعـد سـنوات ملايينًـا أتاحـت لـه شراء شـقة واسـعة في وسـط المدينـة. أحـس أن الدنيـا تضحـك لـه أخـيرا. رضي بذلـك، اسـتقام في حياتـه وأخلـص لزوجتـه مـا يقـرب مـن عشريـن عامـا، إلى أن جـاءت مـن تـراوده عـن نفسـه مجـددا.

[11. عابر سرير]

لم يكن وسيما. كان كما قلت نحيفا عصبيا. لكن سحرا ما في عينيه كان يجذب بعض النسوة إليه. إذا كان تاريخ العشرين من فبراير سنة ٢٠١١ يمثل للكثير من المغاربة الفرصة المهدورة لتفتح زهور الربيع المغربي ولينطلق قطار الإصلاح الشامل دون أن يلتفت إلى الوراء، فإنه بالنسبة لمحمد التاريخ الذي ودع فيه العمل في الحانة واعتكف في البيت.

ذلك المساء جاءت صاحبة الحانة الفرنسية ومعها، لأول مرة، ابنتها، الوردة المتفتحة ذات السبعة عشر ربيعا. كان في الخدمة آنذاك فحمل للأم كأس الكونياك الذي تفتتح به مساءها كلما أتت، وقدم لابنتها عصير

برتقال طلبته الأم واعترضت عليه البنت متذمرة. ذلك المساء غمز له زملاؤه كثيرا وهم يشيرون إلى الصبية التي سكنت نظراتها عليه في ذهابه وغذوه. ذلك المساء، تتبعته الصبية بنظراتها حتى ذهب ذات لحظة إلى الحمام فلحقت به وأقفلت عليهما الباب وتركت فستانها ينزلق إلى الأرض.

لم يفعل شيئا.

ارتفعت دقات قلبه، ولم يفعل شيئا.

نعم اشتهاها، لكنه لم يفعل شيئا.

توقف طائر أخضر على نافذة الحمام ورأى عينيه تلمعان كعيني فاطمة. أحس بمائه يتدفق وأحس بالأرض تميد به وسقط مغشيا عليه.

تلك الليلة كانت آخر عهده بالمكان، وبالعمل اجمالا. جلس في البيت معتكفا للعبادة. لو سألته لما وجدت عنده الجواب، لا عن الطائر ولا عن الإغماءة

ولا كيـف أدى ذلـك إلى هروبـه إلى سـجادة الصـلاة.

سـتمر عليـه الأشـهر عامـين كاملـين سـينسى فيهـما حياتـه السـابقة وسـيبقى أسـير سـجادة الصـلاة إلى أن يـأتي مسـاء آخـر سـيجد فيـه نفسـه أمـام جسـد امـرأة عاريـة تقطـر مـاء، ولـن يـرى في ذلـك اليـوم أي طائـر أخـضر تلمـع عينـاه كـما تلمـع عينـا زوجتـه فاطمـة.

[12. الأيـام (2)]

<u>الأحـد، ١١ سـبتمبر:</u> لم أعـد قـادرة عـلى التحمـل. لمـاذا هـذا العـذاب يـا اللـه؟ ألم يكفـك تعـب العمـل في المقهـى ثـم العـودة إلى البيـت لأجـد أكـوام المهـام المنزليـة تنتظـرني. كذلـك عـليّ خدمـة مؤجـري الغرفـة. كل هـذا بجانـب خدمـة ذلـك المسـخ والرائحـة الشـيطانية التـي تقتلنـي كلـما أطللـت عـلى غرفتـه. الآن ترسـل لي أيمـن مـع أصدقائـه ليسـخر منـي؟ أيمـن حبيبـي الـذي تواعدنـا عـلى الـزواج حـين نكمـل سـنوات الكليـة جـاء مـع أصحابـه للسـخرية مـن الطالبـة المتفوقـة التـي كانـت تبزهـم جميعـا وأصبحـت الآن مجـرد نادلـة وخادمـة في مقهـى. لا بـأس يمكننـي تحمـل ذلـك. لكـن أن يعـود

لاحقا مع صديقة جديدة ليغيظني؟ عاهرة تلبس سروالا جلديا ملتصقا يكاد ينفجر طالبا الرحمة من مؤخرتها الممتلئة وقميصا ضيقا تكاد أزراره تنطلق كرصاص بسبب حجز ثدييها الضخمين عنوة داخله. وكأن كل ذلك لم يكن يكفي. ما إن غادر أيمن حتى جاءت زوجة أخي. لا. تعبت يا الله. لا قدرة لي على التحمل. ليتك ترسل لي زوجا يأخذني من هذا الشقاء.

الاثنين، ١٢ سبتمبر: جاء مفتش شرطة مصحوبا بمساعديه وسألوا عن جواد. استقبلهم الوالد وسألهم عن الغاية. أصروا على سؤالهم فصحبهم إلى غرفة أخي. دارت أعينهم في أرجاء الغرفة طويلا ثم توقفت باشمئزاز على جواد وخرجوا وهم يمطون شفاههم. قال المفتش قبل المغادرة بأنهم وجدوا زوجة أخي مقتولة في إحدى الشقق مع صاحب الشقة. تلقيت الخبر ببرود تام كأنه لا يعنيني البتة. لم يبدُ لي مفاجئا كما لو أني كنت أتوقع ذلك منذ الأزل.

[13. إحدى عشر دقيقة]

لم تصدق هند عينيها، وهي تستند على الكونتوار ترشف الشاي وبصرها تجاه باب المقهى، حين رأت سارة، زوجة أخيها، تخطو إلى الداخل وهي تتأبط ذراع رجل آخر. بدت لها سارة مختلفة، بتسريحة شعرها المعقودة إلى الوراء، أحمر الشفاء الغامق، القميص المفتوح الذي يكشف جزءًا كبيرا من صدرها، والسروال الجينز الضيق الذي كور عجيزتها ورفعها. لكن عيناها اللعوبتين لم تخفيا عن هند التي ابتلعت رشفة الشاي الأخيرة كأنها العلقم. تجمدت ذهولا وتخيلت أن كل رواد المقهى سمعوا صوت دقات قلبها اللاهث.

لم تخرج هند من ذهولها إلا حين وكزها النادل زميلها مشيرا إلى أن طلبات أحد زبائنها جاهزة. حملت الصينية واختارت طريقا طويلا إلى الزبون. اعتزمت أن تمر بجانب طاولة سارة، أن تتظاهر بالتعثر وتسكب عليها كأس العصير الذي تحمله. لكنها حين اقتربت، ومع ارتباكها، تعثرت قبل أن تصل. سقط كأس العصير على الصينية وتناثرت بضع قطرات على وجه سارة.

صرخت سارة وهبت واقفة. قام رفيقها وشتم هندا، بلهجة قادمة من أقصى الشرق العربي. انحبست دموع القهر في عيني هند وصرخت في وجه الرجل، «ألا تخجل من نفسك تعاشر امرأة متزوجة؟» مدت سارة يدها إلى هند وجرتها من كتفها، ثم أرسلت كفها إلى خدها، وصرخت فيها ومحجري عيناها يكادان يسقطان أرضا، «صمتا يا ابنة العاهرة.»

أطبق صمت مخيف في المقهى وارتج على هند. تحركت شفتاها ولم تستطع التلفظ بكلمة. زمّت

شـفتيها. ضمـت أصابـع قبضتيهـا ووقفـت عـلى أطـراف أصابعهـا. تخيـل الجميـع أنهـا سـتطبق عـلى عنـق سـارة إلا أنهـا اسـتدارت وجـرت نحـو حـمام المقهـى، وسـلمت نفسـها للبـكاء. كل مـا كانـت تفكـر فيـه آنـذاك أنهـا تكـره أيمـن حبيبهـا الـذي تخـلى عنهـا وتكـره أخاهـا جـواد.

بل تمقته. جواد هو السـبب في كل ما يحدث لها.

لحـق بهـا زميلهـا. طـرق عـلى البـاب المفتـوح وخطـى إلى الداخـل. التفتـت هنـد إليـه. قطبـت حاجبيهـا وحدقـت فيــه بنظــرات ناريــة. تقدمــت إليــه بعــزم أخافــه. أمســكت بتلابيبــه وجرتــه إليهــا. دفعتــه حتــى التصــق ظهـره بالجـدار وهجمـت عليـه. ضغطـت ثدييهـا عـلى صـدره وطفقـت تفـترس شـفتيه. بهـت زميلهـا وألجمتـه المفاجـأة دقيقـة كاملـة قبـل أن يتمكـن مـن دفـع هنـد عنــه ويجــري خارجــا كأن الشــياطين تطــارده.

اســتدارت هنــد إلى المــرآة. زفــرت بعمــق وشــهقت. عدلــت هندامهــا وأعــادت تسريــح شــعرها. غســلت

وجهها وجففته. تأكدت مجددا من هندامها. وقفت باستقامة. قطبت حاجبيها. رسمت الصرامة على قسمات وجهها، ثم خطت خارجة لتكمل دوام عملها.

[14. عالم جديد شجاع]

جاءت النهارات وتبعتها الليالي، مرت الأيام وبعدها الأسابيع وها هو الشهر الثالث يكاد يكتمل على بدء اللعنة التي أصبح عليها جواد ذات صباح صيفي. إنه العصر الآن. الأب في المسجد. الأم أخذت عجين الخبز إلى فران الحي. الأخت كانت تنظف الصالة. راكعة على الأرضية تدعكها بهمة وتغني بصوتها العذب أغنية فرنسية رقيقة. كان فستانها المنزلي حاسرا فوق فخذيها، وكان أخوها جواد نائما عن ذلك كله.

كان يا ما كان، شاب طيب اسمه جواد أصابته لعنة حولته إلى كائن لا تحتمل صحبته. أمضى ثلاثة أشهر حبيس غرفته، يكاد لا يستيقظ إلا ساعات محدودة

صباحا ويستسلم للنوم طيلة ساعات النهار، وساعات الليل، حسبما يعتقد.

في تلك العصرية، انتصب شعر جسمه كاملا متوترا مستشعرا خللا في كهرباء الجو. بدأت أغنية أخته تصل إلى مركز السمع في أذنه، ومعه تلقى مركز الشم رائحة ذكورية غريبة تدور في الجو. فتح جواد عينيه بغتة، وبشكل غريزي محض قفز من فراشه واخترق باب الغرفة واندفع مرتطما بالسائح الفرنسي، مؤجر الغرفة، الذي كان يهم بالركوب على ظهر هند.

صرخت هند وصرخ الفرنسي إيمانويل مرتعبا من القرد الذي هجم عليه.

انفتح باب الشقة بعنف ودخل الأب الذي سمع الصرخة من سلم العمارة ورفقته زوجته. رأى ابنته على ركبتيها في جهة، والشاب الفرنسي في ركن آخر يصرخ بهستيرية وهو يشير إلى جواد المتحفز على أربع كأنه يهم بالقفز عليه.

احمـرت عينـا الأب وصرخ مسـتفسرا. أشـار الفرنـسي إلى جـواد وتلفـظ بكلـمات سريعـة بالـكاد فهـم منهـا الأب أن هـذا المسـخ خـرج مـن الغرفـة وهجـم عـلى الفرنـسي المسـكين الـذي كان يحمـل دلـو مـاء ليسـاعد ابنتـه المحترمـة في التنظيـف. زمجـر جـواد ولم يسـتطع التلفـظ بـأي كلمـة. نظـر الأب أولا إلى الأم نظـرة وأخـرج مـن بـين أسـنانه كلـمات عتـاب غاضبـة لـلأم التـي خرجـت وتركـت البنـت في البيـت وحدهـا مـع رجـل غريـب، ثـم اسـتدار إلى هنـد يسـألها. صمتـت بعـض الوقـت وهـي تمـرر بصرهـا بـين الفرنـسي ووجـه أخيهـا، ثـم تكلمـت وأكـدت لـه روايـة الشـاب الفرنـسي.

لم يفهـم إيمانويـل كلام هنـد لكنـه اسـتوعب مـن إشـاراتها ومـن ملامـح الأب أنهـا أكـدت روايتـه.

زمجـر جـواد مجـددا وبـدا أنـه سـيقفز عـلى الفرنـسي غـير أن الأب هـش عليـه بعصـا المكنسـة ودفعـه ليعـود إلى غرفتـه، وفي أثنـاء ذلـك كان يحـاول أن يـشرح للفرنـسي

ما لا يشرح ويعتذر له عن الإزعاج الحاصل.

ضحكت الصغيرة أمل حين مر جواد بجانبها. تقطع قلبه وتذكر أنه لم يقترب منها ولم يلاعبها منذ ثلاثة أشهر. مد يده إليها في طريقه إلى غرفته. لامست أنامله أصابعها الرقيقة، وتجمد في مكانه لحظة قبل أن يسحب يده بسرعة، لكن بعد فوات الأوان. صور قاتمة تدفقت، عبر أنامل الصغيرة، إلى وعيه ككيس خيش استقبل العشرات من سهام تمرين التصويب. كانت الزوجة تستحم وكان الأب يصلي العصر وكانت الأخت والأم في السوق. خرجت الزوجة من الحمام تلتحف الفوطة ليس إلا، ناسية أو متناسية أنها ليست وحدها. علَقت الفوطة بطرف مسند التلفاز الحديدي فانفتحت وانسلت منزلقة. قام الأب واستدار طاويا سجادة الصلاة وتصلبت عيناه على الحور العين التي نزلت إليه من الجنة. ارتبكت وتجمدت، ثم شهقت وجرت. تعلق بصره بالكرتين المتوثبتين وانحبس ريقه

في حلقــه. ســعل حتــى كاد يختنــق ثــم انتصــب ونفــخ صــدره وخطــى إلى غرفتهــا بخطــوات واســعة. في البدايــة كان الاحتجـاج الصامـت ثـم جـاء التمنـع المتدلـل ثـم جـاء الرضـوخ المستسـلم، وبعـد تسـعة أشـهر جـاءت أمـل.

التفــت جــواد إلى أبيــه ورأى الأب في عينيــه مــا رأى. تهــدل كتفــه وانحنــى ظهــره وهــرب بعينيــه إلى الأرض. عــاد جــواد إلى غرفتــه والأجنبــي إلى غرفتــه وجلســت الأسرة تحتضــن صمتــا قاطعتــه الأم بنوبــة بــكاء أتبعتهــا بدعــاء أن يأخــذ اللــه روح ابنهــا ليريحــه مــن معاناتــه ولترتــاح الأسرة مــن معاناتهــا. أمنــت هنــد عــلى دعــاء أمهــا ورفــع الأب نظراتــه إليهــما وبقــي صامتــا يفكــر.

ســمع جــواد ذلــك كلــه، وتــرك هــذه المــرة الدمــوع تنســاب مــن مقلتيــه. تذكــر صبــاح الســبت، الــذي ســبق اثنــين التحــول، حــين مــر عــلى مختــبر التحليــلات الطبيــة وتســلم التحاليــل التــي أكــدت شــكوكه. إنــه عاقــر بشــكل قطعــي ولا يملــك أي فرصــة في ذريــة مــن صلبــه. تجمــد

حين قرأ النتيجة. لم يصدق. عاد لينام قرير العين، غير أن الخبر استيقظ معه صباح الأحد وبقي يسري كالسم في عروقه حتى رمى بنتيجة التحاليل في مجرى الصرف الصحي المطل على شاطئ مالاباطا.

أغمض جواد عينيه ولم يفتحهما بعد ذلك.

فجرا ستستيقظ الأم وابنتها على سورة يس يقرأها الأب بصوت متهدج. خرجتا والأم تضع يدها على قلبها. تقدمت هند مطلة على غرفة المسخ ولم تجد أحدا. انتظرتا على أحر من الجمر الأب حتى أكمل التلاوة الباكية، وقال، قبل أن تسألا، إن جوادا توفي، وبأنه تصرف وأخرج جثة المسخ المشوهة النتنة. جلست الأم ونشجت بصمت، وباغتت البسمة محيا الأخت فطردتها سريعا.

[15. الأيــام (3)]

<u>الثلاثــاء، ٢٩ نوفمــبر:</u> هــل مــات حقــا؟ هــل يمكــن أن يكـون الكمـد قـد أوقـف قلبـه أم تـراه انتحـر عمـدا؟ لـن أسـتغرب لـو أن الوالـد العزيـز قـام بالحركـة الأخـيرة بعـد الفضيحــة التــي ســببها لنــا مــع ضيفنــا الفرنــسي وأجهــز عليــه. لكــن هــل يهــم هــذا حقــا؟ كلا. لا. لا يهــم.

<u>الجمعــة، ٢ ديســمبر:</u> تســلمت اليــوم جــواز ســفري وتأشـيرة شـينجن. أحـضر لي إيمانويـل عـن طريـق صديـق لــه منحــة برنامــج إبداعــي للكاتبــات العربيــات للتفــرغ لمـدة سـنة لكتابـة روايتـي الأولى. لكنـي لا أنـوي العـودة. ســأضع نقطــة آخــر الســطر وســأحمل حقيبتــي بعيــدا عــن هــذا البــؤس والشــقاء. حبيبــي إيمانويــل ينتظــرني في الميـنـاء. الـوداع مامـا. الـوداع طنجـة.

* * *

شكر وتقدير

في البداية والنهاية، إلى ابتسام، زوجتي. شكرًا على صبرك.

الصديق حميد البقالي. أول من يقرأ كتاباتي، باستمرار، منذ سنوات عديدة. شكرًا لك دائما.

الصديق باسل الطباع، لن تكفي الكلمات لتوفيه حقه. تشجيعه كان كبيرا، ومساهمته في تدقيق مخطوط هذه الرواية كانت عظيمة.

والشكر لكافة الأصدقاء الذين راجعوا المسودة الأولى وتفضلوا عليّ بملاحظاتهم القيمة: نجيب كعواشي، سارة زعيمي، عبد العزيز عبد الحميد، أحمد فرج الروماني، وليد حامد، أحمد كامل، وخالد الجبيلي.

لو ثمة نقص في هذا العمل فهو مني حصرا، ولا أحد منهم يتحمل مسؤولية ذلك.

م.س

أخـي القـارئ الكريـم/ أختـي القارئـة الكريمـة، شـكرًا لـك قراءة هـذه الروايـة أتمنـى أنـك اسـتمتعت بقراءتهـا واسـتفدت منها، ولـو قليلًا.

يسـعدني أن تتواصـل معـي لتخـبرني برأيـك وملاحظاتـك حَـول الروايـة مبـاشرة عـلى بريـدي الموَضّـح أدنـاه.

يمكنــك أيضًــا كتابــة ملاحظاتــك ومراجعاتــك للروايــة عــلى الشــبكات الاجتماعيّــة ومواقــع تقييــم الكتــب.

أيضًــا، ولأن الكتــب خُلِقــت لأجــل القــراءة وليــس لتزيــين المكتبــات، لا تــتردد في إعــارة هــذه الروايــة إلى صَديــق أو إهدائهــا إلى مَكتبــة عامّــة.

ختامًـا، يمكنـك مراجعـة موقعـي أو صَفحتـي عـلى فيـس بـوك؛ للاطـلاع عـلى اخبـار هـذه الروايـة وجَديـد اصداراتي

شكرًا لكم أصدقائي،،

محمد سعيد احجيوج

http://hjiouij.com

ms@hjiouij.com